المكتبة الثقافية

٥٠٥

الجبرتي والغرب

(رؤية حضارية مقارنة)

د. مصطفى عبد الغني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

الاخراج الفنى : محمد المحجوب

الى ابنى احمد

● مقدمـــة

هذه محاولة لفهم بدايات التاريخ العربى فى العصر الحـــديث . وهى محاولة كتبت بطريقة مغايرة الى حد بعيد .

فاذا كانت الدراسات السابقة ـــ فى التاريخ الحديث ـــ تولع بنقد النصوص وتحرى الاصول وتحديد العلاقة بينها والاحاطة بالقواعد المعروفة فى كتابة التاريخ ، فان هذه المحاولة تضيف ، الى هذا ، الافادة من بعض المدارس النقدية فى الغرب ، ولعل من أهمها (البنائية)(*) خاصـــة فى القسم الاول منها ، اذ بدت بعض تطبيقات (البنائية) فى الغرب تغرى الباحث للخـــروج من بنية الأدب الى آفاق العلوم الانسانية والاساطير .

وكان الهدف من ذلك ان تركيز الضـــوء على حادثة بعينها ، بوســـائل مغايرة ، يمكن أن يضيف الى الفهم السائد فهما جديدا ، كما ان الوصـــــول من ذلك إلى (دلالة) محددة ، يمكن اســــتخدمها فى فترات زمنية واحداث أخرى بما يشبه (القانون) التاريخى مع الوضع

فى الحسبان الاحتمالات التى تضـــيف الى الفهم ابعادا أخرى .

وهو ما يحتاج الى استطراد .

اننا حين حاولنا استخدام (يوميات) عبد الرحمن الجبرتى فى مقابل صحف نابليون بونابرت فى بدايات القرن الماضى .. لم نحاول عزل هذه المادة التى بين أيدينا عن بيئتها ، كأن نتعـــــامل معها ــ كما هو الحال عند بعض البنيويين ــ كنصوص مجردة منفصلة عن سابقتها ، ونشغل فى البحث عن بنيتها اللغوية عن دلالتها التاريخية ، فلو صح ذلك فى الأدب فانه لا يصح فى الاحداث التاريخية : السياسية والاجتماعية .. الخ ..

المسألة لم تكن نبدأ من النص أم من خارجه ؟ انمـــا تحددت من أى عنصر نبدأ انطلاقا من الخط الذى يصل بنا الى تفهم الحادثة فى ضوء الحركة التاريخية ، وفى ضوء الدلالة التى تفرز المرتقب والمحتمـــــل فى تطور الحـــركة التاريخية .. ؟!

وبذلك تصبح الحادثة بنية عضوية وليست معزولة ..

لقد حاولنا فى ذلك التوقف عند سنوات بعينها حتمها التحليل المقارن بين النصين (عجائب الآثار / جورنال دى لى جيبت) ، خاصة الجزء الثالث من مجلد المؤرخ العربى ، ومثيلتها فى صحف القائد الفرنسى (بين عامى ١٢١٣ ــ ١٢٢٠ هـ) أما الســـــنوات الاخيرة من (العجائب) فلم

نضعها فى الحسبان انطلاقا من أن الهدف من الدراسة هنا كان لرصد خطوط الاتفاق والافتراق فى لقاء الشرق بالغرب .

ان اللقاء بين الشرق والغرب فى فترة زمنية محددة كان أكثر ما يعنينا لفهم طبيعة هذه العلاقة ، ليس فى هذه الفترة فقط وانما — كما أسلفنا — لاستخلاص (القانون) الذى نستطيع فى ضوئه تفهم استجابات أى من الطرفين ازاء الآخر فى أية فترة زمنية تالية ، كذلك — وهو ما يهمنا — درجة استجابة الطرف العربى وتفهمه لما يجرى ..

لا يعنى هذا اننى أهملت أى جزء من الاجزاء الاربعة (العجائب) للجبرتى أو أية صفحة من صفحات (كورييه) نابليون ، بل اننى حاولت ان أضع أولويات زمنية للبحث مع تفهم الخارطة العامة .

وخلال ذلك كله كان علينا أن نتتبع فى الطرف الأول موقف فئتين اثنتين : علماء الدين والرأسمالية الوطنية لنحاول الاجابة عن عديد من التساؤلات .

وقد عنيت فى القسم الاول بدرجات الخلاف بين الحضارتين ، فى حين أطلت فى القسم الثانى لتبين المشاعر الحقيقية لتفهم مشاعر الفئة المميزة لعلماء الدين عندنا وطبقتها الرأسمالية (الجبرتى رمزا) ، وانتهيت من هذا كله الى حقيقة حاولت البرهنة عليها من خلال موقف أو درجة الانبهار التى سيطرت على (العالم) عندنا أكثر من الاعجاب والذهول ..

وهو موقف اثر فى مكانة عالم الدين (والمثقف) فيما بعـــــد .

لقد كان عبد الرحمن الجبرتى ينتمى الى الفكر التقليدى رغم وعيه ، هذا الفكر بكل آلياته القديمة حين يصطدم بفكر آخر مغاير له فى النوع ، مختلف عنه فى الســـياق التاريخى والحضارى .

والمغايرة هنا هى التى تفسر حالة (الدهشة) ، وهى (الدهشة) التى جعلت الجبرتى يرى بعض الاشياء بغير وضوح كامل ، أو حاول الا يخرج عن تراثه الروحى بعيون قديمة الى هذا الواقع الجديد وسياقه المختلف .

لقد قبع الجبرتى طويلا فى التاريخ ، وحين خرج الى الحاضر الراهن له ، لم يحاول أن يصيغ التاريخ فى لحظة الوعى بسياق حضارى مغاير ..

كان التاريخ يؤثر فيه فيلوم .

أو الراهن يؤثر فيه فيدهش

وفى الحالين التبست الرؤية التى مازلنا نعيشـــــها حتى اليوم فى تعاملنا نحن (الشرقيين) مع الآخر ..

وقد كان ذلك كله وراء عدة تساؤلات حاولنا الاجابة عنها :

ــ ما سبب تدهور البنى الســـياسية والاجتماعية والفكرية لوطننا العربى ابان مجىء المحتلين الفرنسيين ؟

ـــ كيف أخطأ عالم الدين (= المثقف) فى فهم هذه التحولات ؟

ـــ وكيف أخطأ فى فهم سبب مجىء أولئك الغربيين ؟

ـــ وكيف أخطأ الفرنسيون فى فهم موقف الشرقيين ؟

ـــ لماذا فشل المثقف العربى حينذاك فى فهم دوافع المستعمر وراء سعيه لاقامة محاكمة (صورية) لسليمان الحلبى قاتل كليبر ؟

ـــ وكيف فشل فى تفهمه لموقف الفرنسيين حين أقاموا لسليمان (الخازوق) ولرفاقه التمثيل بالراس بطريقة بشعة ولثلاثة أيام ؟

ـــ وكيف فشل فى تفهم حقيقة أن حضارة الغرب هى حضارة عنف ؟

أسئلة كثيرة حاولنا الاجابة عنها ، وهو ما أنتهى بنا الى هذه الدراسة المقارنة ..

د . مصطفى عبد الغنى

(*) حاولنا أن نسلك طريق جـــديدة فى فهم التاريخ ، فاذا استثنينا دراسة مثل دراسة بوردو .

Homo a cademicvs Pierre Bourdieu les Editions de Minuir, Paris, 1984.

لانتهينا الى أن أحدا فى التاريخ الثقافى لم يستخدم ـــ خاصة فى الشرق ـــ الفهم البنيوى لدرس التاريخ العربى .

● تمهيـــد

مصر قبل الحملة الفرنسية

ان تركيز الضوء على ظاهرة ما فى لحظة متوقفة عبث لا طائل وراءه ، فمن الخطأ ان تتعامل مع هذه الظاهرة أو تلك بشكل (آلى) فى لحظة متفردة لنفصل ما قبلها عما بعدها ، أو نقتصر على رؤية الانسان فى التاريخ بوصفه (هيكلا تصوريا) للانسان .

وهذا الخطأ الذى يقع فيه كثير من الدراســـــات المعاصرة لا يمكننا من تفهم دلالات الحاضر فى ضوء الماضى، ووضع قانون مصغر للاشياء نستطيع به تفسير ما سيجرى فى اللحظة المقبلة ، ومن هنا ، فنحن فى خلاف دائم مع فلاسفة التاريخ الامريكيين ، خاصة ، ممن جهدوا لتصبح النزعة التجريبية الوضعية لها سيادة مطلقة ، كما اننا فى خلاف دائم مع أولئك المؤرخين التقليديين أو (كتبة) التاريخ المحلى ممن يحاولون فهم هذه الظاهرة أو تلك بمعزل عن السياق التاريخى ، وهو ما يخالف كثيرا من المراحل للفهم النقدى للتاريخ وطبيعة رسالته .

وهذا الفهم الرتيب الخاص بالمنهج لا يقتصر على تصور

الوعى الشخصى فقط ، وانما يجاوزه فى تصور الوعى فى فهم العملية التاريخية ، فالظاهرة فى اطارها الزمنى ليست منبتة الصلة بغيرها فى البنى السابقة عليها . ومن هنا ، لا يمكن أن نرى فى محاولات « البنائية » فى هذا الصـــــدد فائدة كبيرة لتقصى الدلالة ، فمن الصعب بمكان أن ننظر الى الحـــــادثة التاريخية فى اطار محدد يختلف عن العالم ولا يتماشى مع بقية أفعاله الاخرى ، وان كنا نتفق معها ، بالضرورة ، فى محاولة فهم الظاهرة للقبض على هذا النظام المصغر ودلالاته بغيره ، لنستطيع ، من ثم ، فهم النظام العام وأحكامه .

والأكثر من هذا دلالة اننا وحتى فى البحث عن قانون داخلى أو — حتى — شفرة تكشـــــف عن حركة الابنية الداخلية للحادثة ، فاننا لا نســـــتطيع تجاهل علاقة هذه الشفرة بغيرها ، على افتراض انها يمكن أن تمثل فى لوحة الفسيفساء (زمنيا) جزئية تكرر نفسها فى متتالية دائمة مستمرة .

وهنا ، نجاوز حركة (العدسة) المتوقفة الى حركة (العدسة) الزاخرة بالمعانى والدلالات .

وعلى هذا النحو ، نصـــــل الى الفارق بين رؤية (البنائية) فى اطارها اللازمنى وبين الرؤية (التاريخية) فى دأبها على التقاط الاحداث واستيعابها فى اطار زمنى يعى ما قبله ويعمل لما بعده .

وليس معنى ذلك أننا نقتصر على (البنـــائية) فى تصورها الرياضى أو نقترب من (الماركسية) فى تطورها الزمنى . ففى رأينا ان البنائيين استفادوا كثيرا من المفاهيم الماركسية الاولى وشراحها (من المعروف أن البنائيين الاول رضعوا الماركسية مع ما رضعوه من أمهاتهم ، كما يقول « ريمون آرون » . فهى جزء لا ينفصل عن فكرهم ، ولذلك فان « التوسير وسارتر ولوفيفر وليفى شتراوس » كلهم ادعى لنفسه حق ممارسة الديالكتيك الماركسى — وهو ما أشارت اليه « أديت كيرزويل » فى كتابها : عصر البنيوية الذى ترجمه أخيرا للعربية د . جابر عصفور .

ومن هنا ، ستظل محاولاتنا مقصورة على الافادة من هذه الاجتهادات مجتمعة بأن تتعامل مع الظاهرة وتقبض على دلالاتها بمنظور خاص ، لا يلتزم بالضرورة بالمناهج ، بقدر ما يدخل معها فى علاقة نقدية بالمعنى الفلسفى .

ومما سبق ، سوف نحاول أن نعيد الهرم الى وضعه الطبيعى مقلوبا من الرأس الى القاعدة ، وبدلا من أن نحدد (نموذجا) معينا ، نهتم عنده بالوصف فحسب ، سنضيف الى هذا محاولة سابقة تجتهد فى وضع هذا (النموذج) فى اطار التتابع الزمنى وتطوره .. غير أن الترتيب الذى يمكن أن يكشف لنا عن الابنية الداخلية وعلاقاتها فى الســياق العام يظل هنا ثابتا .

فلنخرج من اطار المنهج الى اطار الرؤية والتفسير .

ان العـلاقة بين الشرق والغرب ، أو بين الجبرتى (كممثل لفكر الشرق) وبين صحف بونابرت فى مصر حينئذ (كممثل لفكر الغرب) ، تظل هى العلاقة التى سنصل فى إطارها الى مفاهيم مجردة ، وسوف تسبق هذه المرحلة مرحلة أخرى تمهد لها ، وتكشـف فى التتابع الزمنى عن المؤثرات العامة التى أدت الى تحديد (خصائص) الظاهرة والكشـف عنها اذا أمكن ، والافادة من هذا (القانون) المصغر الذى يمكن من خلاله كشـف طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب فيما بعد ، وحتى الآن فى اطار هذا الفهم .

وبشكل آخر ، سيتحدد اطار هذا البحث فى خطين :

الاول : دراسـة خصـائص عصر الجبرتى ، وملامح الثقافتين : العربية والفرنسية ، لنخرج ، من ثم ، من التعميم الى التفصيل .

ثانيا : دراسـة موقف الجبرتى الخاص من الفئات الدخيلة على مصر ، وهو ما سيصل بنا من جديد الى رصد بعض الدوافع التى كانت وراء تدوين الأثر الفكرى سواء فى الجانب الشرقى أو الغربى .

وسوف نقبض على عديد من خيوط شبكة التحولات من خلال هذين الأثرين :

* عجائب الآثار فى التراجم والاخبار : عبد الرحمن الجبرتى ، الجزء الثالث ، (وقد طبع بالقـــــاهرة بدون تاريخ) .

* Courier de L'Egypte : وهى الصحيفة التى أنشأها نابليون بونابرت حين جاء الى القاهرة (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) ، وقد طبعت بالازبكية بالقاهرة .

وسوف تتحدد الفترة الزمنية هنا بين عامى ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ ميلادية على اعتبار انها الفترة التى تحدد من خلالها دائرة اللقاء الاول بين الشرق والغرب، على أن تمثل هذه الفترة مركز الدائرة للدائرة الارحب للعلاقات بين الشرق والغرب قبل هذا وبعده ، وخاصة الفترة التى تمتد بين عامى ١٧٦٠ ــ ١٨٤٠ لاعتبارات سيزيدها البحث ايضاحا كما سنرى .

وسوف نرى أن هذه الفترة ستقسم الى ثلاثة حروف ، تتوسط الفترة الاولى ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ وهى الفترة (ب) التى تتوسط فترتين أخريين أطلق عليهما (أ) و (جـ) .

ولا يمكن أن نتعرف على خصائص عصر الجبرتى دون تفهم العصر الذى سبقه على اساس ان مجموعة الخصائص والتغيرات التى حدثت فى هذا العصر ــ السابق ــ هى التى أدت الى بنية زمنية تالية .

وليس من شك أن دراسة هذه البنية الجديدة تصل بنا ، بالتبعية ، مع التغيرات الى تتابع يصل الى البنية الثالثة ، وهى العصر الذى يعقب فترة وجود بونابرت فى مصر .

وعلى هذا النحو ، فان تمثل البنى الزمنية الثلاث يمكن أن يسهل لنا دلالة التتابع وأهميته من منظور محايد .

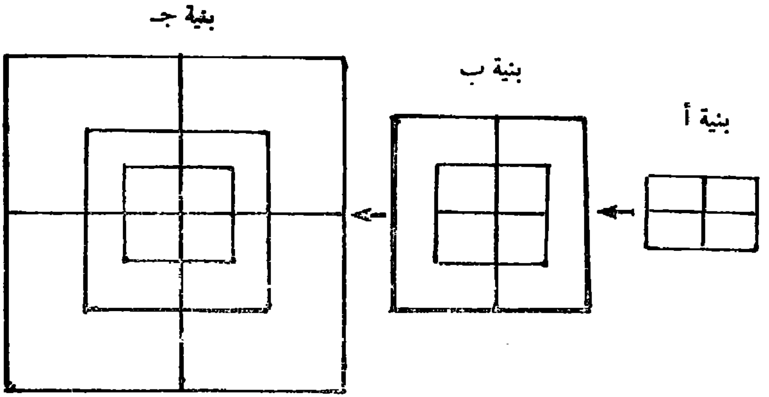
اننا يمكن أن نتمثل بنى العصور الثلاثة برموز ثلاثة هى : أ ، ب ، جـ ، فنرى العصر السابق على عصر الجبرتى على أنه (أ) ، ثم عصر معاصرة الجبرتى لبونابرت على أنه (ب) والعصر التالى على أنه (جـ) .

وهذا التصور يكشف لنا طبيعة (البنى) دائما فى تغيراتها الزمنية ، السابقة أو اللاحقة ، بما يوفر لنا امكانية التعرف على الخصائص أو العلائق المتغايرة من هذه البنية أو تلك ، بما يقرب بنا من تكشف طبيعة الخيوط المخبأة فى نسيج المستقبل .

وسوف نتمثل هذه البنى على النحو الآتى :

ان الرمز الذى سبق مجىء بونابرت الى مصر يختلط فيه كثير من التصورات التى تحول بعضها ، بغض النظر عن صدقها ، مع الوقت ، الى أفكار ثابتة يتفق عليها عدد كبير من كتاب التاريخ المصرى من المصريين والاجانب فى آن واحد .

فبينما ذهب البعض ـــ وهم الأغلبية ـــ الى أن هذه الحقبة هى حقبة تجمد وتدهور ، فان البعض الآخر ذهب الى أنها ، على العكس ، حقبة أطراد وتطور ، وكان يمكن أن تستمر لولا ما طرأ على الواقع المصرى من تغيير منذ جاء الفرنسيون الى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر .



وهذا الفهم الخاطىء اختلط فيه الثقافة الاجتماعية بالتحولات الاقتصادية ، فأسهم فيه كثير من الغربيين أنفسهم كى يتم تحديد هذه العلاقة وطبيعتها قبل فترة التدخل الاوروبى ثم بعده قصد رصد عمليات استيعاب المستحدث من عناصر الثقافة الاوروبية .

فلنرجىء الدافع السسيولوجي للثقافة الغربية ،

ولنتوقف ، أكثر ، حول طبيعة الواقع السياسى والاقتصـ
حينئذ .

فلنحاول ، الاجابة عن هذا السؤال :

ما هى طبيعة الفترة التى سبقت مجىء بونابرت مصر ؟

الاجابة لابد وأن تمضى فى اتجاهين .

فى اتجاه يرى البعض أن الفترة التى سبقت نابلـ
كان يشوبها التخلف مثل جاكوب لانداو cob Landau
الذى راح يولع بحشد المعلومات دون تمثلها خاصة
دراساته عن المسرح ، والرحالة ادوارد لين الذى ،
يسقط قصص (ألف ليلة وليلة) على حياة المصريين بعد ر
بونابرت بسنوات ، فضلا عن أن عددا كبيرا آخر
يستطع تفسير بعض الظواهر الفنية فى الشرق وتـ
بعضهم بالحس الخيالى دون الحس الوصفى من أمثال بـ
كالة Paul Kahle وياكوب Jacob وفـوا
Volnne ومولياك Moliac وتتوالى الاسـ
الكثيرة بعد ذلك حتى نصل الى المؤرخ كروتشلى .E
Crouchley الذى صور مصر على أنها كانت مـ
حطام : « فقد ضرب ريها ، وتدهورت تجارتها ، وضعـ
صناعتها ، بل وبدأ عدد سكانها فى التناقص ، وقد :
المجتمع بحق فى حالة من الجمود وعدم الحركة » ، و

كان هذا بالطبع يعود الى الفترة المملوكية التى لم تعرف الاستقرار السياسى والاجتماعى واقامة القانون والنظام .

هذا هو الاتجاه الاول الذى يرى أن الحقبة التى شهدت الحملة الفرنسية هى حقبة تدهور وانحسار ، أما الاتجاه الآخر ، فهو يذهب الى أن هذه الحقبة كانت فترة تطور وازدهار على العكس مما يذهب اليه الآخرون . وعلى رأس الاتجاه الاول كان د . لويس عوض فى كتابه : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، متخذا من أعمال ابن خلدون وابن اياس ثم الجبرتى مرجعا له عن هذه الفترة فضلا عن بعض المراجع الغربية . ثم أهم باحثى هذه الفترة على الاطلاق ، وهو ، بيتر جران الذى يقف على رأس هؤلاء ، حين قال : « ان ثمة تطورا داخليا كان ناميا فى مصر فيما بين عامى ١٧٦٠ — ١٨٤٠ نحو الرأسمالية التجارية ، غير انه قد أصابه بعض الاختلال من جراء الآثار المضادة التى ولدتها أنشطة التجار الارمن واليونانيين المقيمين آنذاك فى وادى النيل حتى كادت هجمة الحملة الفرنسية على مصر تقضى على ذلك التطور » .

والواقع ان دراســــة الحقبة التى ســبقت مجىء الفرنسيين الى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر لا تضعنا فى حيرة كبيرة .. ففى حين كانت الروح المعنوية لاسيما على مستوى العلماء والمراكز الثقافية مرتفعة ، والعناصر الاقتصادية فيما تمثل فى التجار فى طريقها الى الارتقاء ،

فان البلاد كانت تعانى من سوء النظام الاستبدادى الذى شجع على سيادة الفكر المحافظ ، وقد ظهر هذا جليا فى جمود لم يلق معارضة شديدة ، فرغم وجود تراكيب آلية للبدع لم يكن ليخطـأها مؤرخ هذه الفترة ، « غير أنها وفرت أدوات لتحكم السـلطة الاسـتبدادية والعادات والتقاليد . وأحد هذه المبادىء هو الاجتهاد ، وهو بمثابة طريقة لاكتشاف منهج حكم القرآن أو السنة على موقف معين » (أحمد عبد الرحيم مصطفى ، حركة التجـديد الاسلامى ، معهد البحوث والدراسات العربية ص ١٣) .. فاذا بنا أمام التقليديين الذين يتجهون الى الحد من حق استعمال الاجتهاد لانه قد يؤدى الى شروخ تحريرية قد تفضى الى تغيير التعاليم والعادات ، ومن ثم ، فانه بينما بدأ أطراد الازدهار الفكرى والاقتصادى من ناحية لدى العلماء ، بدأ غلبة العادات والتقاليد عند عامة الشعب من ناحية أخرى مثلما بدت الفرقة السياسية الداخلية ، وهو ما يشير فى السياق الآخر الى ان الحقبة السابقة على الحملة الفرنسية لم تكن كلها جمودا ، اذ كان من الطبيعى أن يكمن نبض الحضـارة الشرقية تحت رماد العـزلة والعجز .

ولنتوقف هنا قليلا ، لنحاول تركيز عين العدسة اكثر على هذا العصر من خلال فئتين اثنتين :

(أ) العلماء ـــ المثقفين .

(ب) التجار ــ الاعيان .

على أن نضع فى الاعتبار أن تطور الفئتين يسهم ى تأكيد الروح القومية .

وتفصيل هذا اننا لا يمكن أن نقرأ أو نعود الى يوميات الجبرتى أو عديد من مخطوطات القرن الثامن عشر فى دار الوثائق المصرية ، أو حتى ، الوثائق التى تقبع فى اضابير الأزهر دون أن نصل الى حقيقة ناصعة ، هى ، أن علماء الدين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير وعلم غزير ومكانة رفيعة .

لقد كان الازهر ، بشكل ما ، هو الجامعة التى تضم أكبر عدد من العلماء والمثقفين حينئذ ، والجزءان الاول والثانى من (عجائب الآثار) يزخران بدور علماء الدين الواعين ومواقفهم الايجابية من الحكام المماليك لصـــــالح ابناء الشعب ، فبعد ان كان (القضاء) يعتمد على المماليك قبل كل شىء، فان خلافات المماليك وانقسامهم على أنفسهم ضخم أكثر من دور العلماء ، اذ وجد كل طرف منهم أنه فى حاجة ماسة الى زعيم يستعين به على الآخر ، وكوسيط بينه وبين الشعب .

لقد بدا ان النوازع الدينية عند العلماء كانت عاصما للناس من ظلم المماليك ، وفى بعض الاحيان رد الظلم كلما زادت المظالم ، ومع انه يمكن أن نقف كثيرا عند طبيعة التحالف الذى كان يقوم بين العلماء والمماليك حينئذ ، فانه

يمكن أيضا الجزم بانهم ــ العلماء ــ كثيرا ما قاموا بدور الوسطاء بين المماليك وبين الشعب (انظر أحداث سنة ١٢٠٠ من الهجرة : عجائب الآثار ، على سبيل المثال) . أو بين المماليك وبين انفسهم أو بين المماليك وبين الوالى العثمانى مما يشير الى ضخامة دور هؤلاء العلماء مما ينتج عنه ادوار ايجابية لرد الظلم عن الناس وخاصة حين تتحدد مواقفهم فى حدود تطبيق المعاملات الاسلامية وبشـــكل نظرى .

وهذا لم يمنع وقوع بعض رجال الدين أسرى للخرافة والدجل ومغالاة بعض رجال الطرق الصوفية ، غير أن دور رجال الدين عامة ظل دائما موازيا لقدرتهم التى تمتعوا بها ، ونستطيع أن نرصد فى مخطوطة بعنوان (أخبار أهل القرن الثالث عشر) موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ورمز (طلعت أ ٢١٤٨ ، ص ٣٤) .. كيف أن محمد بك (ابو الذهب) ــ فى فترة مبكرة ــ لقى معارضة شديدة من الشيخ الدمنهورى شيخ الجامع الازهر حين رفض ان يكتب له تصديقا للذهاب الى عكا (للحرب) ، وحين كتب هذا الحاكم الى العلماء مستأذنا منهم . فان بعضـــهم (أجاب وبعضهم امتنع) ، بما يشير الى المكانة التى كان يتمتع بها العلماء .

وتؤكد المخطوطة نفسها بعد هذا كيف ان دور العلماء انتقل الى الخصومة واصــــلاح ذات البين بين المماليك أنفسهم .

ويسهب كتاب بيتر جران فى تفضـــــيل دور رجال الازهر من العلماء حينئذ .. فبعد ان يستعرض النشــــاط التجارى يعزو هذا الازدهار الى زيادة دور الازهر وزيادة ارتباط علمائه بهذه القوة الاقتصادية والاجتماعية (القومية) السامقة .

ويلاحظ هنا أن جران لا يكاد يصل الى دور العلماء الايجابى حتى يربط بينه وبين فئة التجار المصريين ودورهم، فقد كانت هذه الفئة آخذة فى التنامى والازدهار فى القرن الثامن عشر خاصة ، أى قبل مجىء بونابرت .

ولاشك أن اجتهاد جران يصبح حقيقة مؤكدة حين نتوقف عند ثلث القرن السابق لمجىء الحملة الفرنســـية حيث شهد نموا متسارعا لطبقة رأسمالية تجارية (مزدهرة) قومية ووطنية ، ذات موقف وطنى معاد لسيطرة الاجانب الجراكسة والترك والافرنج .

ويؤكد هذا ما يلاحظ من هذه العــــلاقة الوطيدة بين الاقتصاد ورجال الدين متمثلة فى تجديد علم الحديث الذى اقترن حينئذ بالنشاط الواسع للقطاع التجارى فى القرن الثامن عشر وصحبه الى حد بعيد .

وبدهى هنا هذا الربط بين التحول الاقتصادى والجذور الاسلامية التي كانت تعتمد علي (التحول الاقتصادى ــ

الزراعى ــ الحرفى) فى مصر فى القرنين السابقين لمجىء الحملة الفرنســـــية ، وعلى أساس ان (الفكر العلمانى الاسلامى) ، على حد قول جران ، والذى انتجه شيوخ الازهر ، لم يشرع فى التبلور ، اللهم الا ، منذ منتصف هذا القرن ــ الثامن عشر ــ وهو الوقت الذى بدأ فيه العمل لاجهاض التحولات الكبرى فى المنطقة .

ويصبح من تحصيل حاصل أن نقول ان الفترة التى سبقت مجىء حملة الغرب ، انما شهدت ارهاصات التطور فى شتى الميادين مما تمثل فى تحالف المماليك ــ الحكام مع التجار المصريين ــ ابناء العرب ــ كما كان يطلق عليهم ــ وشهدت كذلك تحولات اجتماعية مصرية خالصـــــة حيث ازدهرت أحوال التجار المصريين الذين (نافسوا المماليك انفسهم) وتوازى مع هذا كله ، صعود جماعة (العلماء) فى تحالف وطنى قومى .

القســــم الأول

الجبرتى وفترة بونابرت

لقد بدأ واضحا ، ان التطور المطرد فى الاتجاه الايجابى كان يمكن أن يؤدى الى تطور طبيعى آخر لو سارت الامور على النحو الطبيعى مما كان يحول بيننا وبين الصدام غير المؤهل مع الغرب وما أعقبه من تفكك فى آليات التطــور الذاتى فى شتى الميادين .

ومهما يكن ، فانه بمجىء الحملة الفرنسية كان على الجبرتى أن يعى طبيعة المرحلة الجديدة ومؤثراتها الطارئة، ومن ثم ، فانه راح يدون فى اليوم الاول من مجىء هذه الحملة احساسه الداخلى بالخطر ، واستشرافه لمرحلة جديدة ، تمضى بمصر والمنطقة العربية الى حيث لا يحمد عقباه .

ان هذا كله بدا واضحا فى أحداث السنة (١٢١٣ ــ ١٧٩٨) ، حيث يقول فى أول الجزء الثالث من (عجائب الآثار) :

« وهى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجســيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة

وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واحتلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقـلاب الموضـوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفسـاد التدبير وحصـول التدمير وعموم الخراب وتواتر الاسـباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (ص : ١) .

وهنا يكون لزاما علينا ان ندخل الى مساحة هذه البنية الجديدة .

فما هى ملامح هذه المرحلة الثالثة .. ؟

ان البنية التالية لم تكن منعزلة عن سابقتها قط ، ومن ثم ، فان التشابه هنا يكون موضـع تكشف الاختلاف والتراكم وليس الرصد والمتابعة ، فمن الصعب فصـل البنى عن بعضها ، بل ويمكن أن نضيف الى آثار البنية الثانية آثار البنية التالية ـ جـ ـ مما يمكن معه أن نطلق على هذه الفترة الخطيرة من تارخنا ـ كما أطلق عليها البعض ـ بأنها (مفترق الطرق) .

واذا كانت البنية (أ) هى البنية الاولى التى احتوت على خصائص البنية الطبيعية ونسيجها الاصلى ، فان البنية (ب) شهدت التغييرات الكثيرة الطارئة والتى تمثلت فى آثار الحملة الفرنسـية التى احتلت مصر قرابة ثلاث سنوات (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ، وما تبع هذا من جمـلة التغيرات الكثيرة التى قدر لها أن تحدث قبل أن يحاول

النظام العثمانى العودة ثانية كى يجهز على بقايا محمد على فى البنية (جـ) التى وصلت بمصر فى نهاية هذا (المفرق) الهام الى علامة جديدة فى طريق العصر الحديث .

وهنا ، يمكن أن نرى فى حملة بونابرت حدثا هاما فى تاريخ مصر .. خاصة وان العلماء والاعيان تمتعوا ، سواء بسواء، بنفس الدور القديم ، على الاقل فى الظاهر .. وهنا ، يمكن أن نشـــــهد الملامح الاولى فى تبلور الروح القومية وتوثبها .

لقد ظل العلماء يتمتعون بهذه الاهمية ، وهو ما بدا كثيرا فى عديد من مصادر هذه الفترة .. فكثيرا ما كان الجبرتى يذكر دور العلماء والمشايخ أثناء هجوم الفرنسيين الاول على القاهرة ، فيقول حينئذ (فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك الى ســـــاحل بولاق وحضر الباشـــا والعلماء ..) ص ٦ ، وهو يردد فى موضع آخر وفى أكثر من موضع نهوض (أكابر البلد من المشايخ) ويذكر دورهم فى تنظيم علاقات التعامل بين (سارى عسكر ــ نابليون) حين تمكن الفرنسيون من التغلب على أهل البلد وبين أهل البلد من الشعب . بل ان كتاب (وصف مصر) الذى وضعه الفرنســـــيون أنفســـــهم يتحدث كثيرا عن دور العلماء (الأزهر)، كما لم تتوقف صحف الحملة الفرنسية ومصادرها عن ذكر دور رجال الدين المتعاملين مع الفرنسيين ، فى أنهم ــ أى العلماء ــ لم يترددوا فى أن يتخذوا موقفا مناوئا

للهجوم على الفرنسيين ، فهم يعرفون ميعاد قيام ثورة القاهرة ، ومع ذلك ، فانهم لم يبلغوا الفرنسيين .

وهذه الرواية لم يذكرها الفرنسيون فقط ، وانما ذكرها مصدر يكاد يكون محايدا هو (نيقولا الترك) (ص ٢٨ — ٢٩) .

والأكثر من هذا ، أن نابليون فى منفاه — بسانت هيلانة — حين راح يستعيد أحداث الحملة بمصر ، فلم يتردد عن الاعتراف بدور رجال الدين والعلماء ، فلم يغفل قط عن كسب رضاهم وتملقهم « كانوا شيوخا جديرين بالاحترام لفضلهم وعلمهم وثرائهم ، بل ومولدهم . وكانوا عند شروق كل شمس يأتون هم وعلماء الازهر الى قصره قبل الصلاة فيملأ حرسهم ساحة ميدان الازبكية ، ويمتطون بغالهم المطهمة ومن حولهم أتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالشوم فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية .. وفى القصر .. يستقبلون بالتجلة ، وتقدم لهم الشربات والقهوة . وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الاريكة ، ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة فى القرآن ، وبطلبه تفسير الآيات الهامة ، وبابداء اعجابه العظيم بالرسول (صلع) حتى اذا غادروا القصر انصرفوا الى المساجد التى يجتمع فيها الناس ، فحدثوهم بآمالهم ، وهدأوا من روع الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . كما يؤكد صاحب كتاب (بونابرت فى مصر) ج . كرسترفر

هيرولد (ترجم الى العربية ونشر بالقاهرة ١٩١٧ ص ٢٥١ نقلا عن مراسلات بونابرت) .

أما الاعيان فلم تكن لتخلو مصادر هذه الفترة من ذكر دورهم وأهميتهم ، فى « عجائب الآثار » ، على سبيل المثال ، تذكر دورهم هم والعلماء فى مقاومة الحملة ، فالجبرتى حين يتحدث عن فترة الكفاح ضد قوى الاحتلال كان يذكر دورهما معا ، كما كان يقرن كثيرا بين (الشيوخ والاعيان) وهو ما فعله معاصر آخر له وهو نيقولا الترك .

ومن أكثر الملاحظات أهمية فى هذا الصدد ، ان مشروع الحملة بانشاء ديوان فى مصر ، جاء استمرارا لدور العلماء والاعيان فى آن واحد ، فقد كان الديوان ينقسم الى قسمين :

ــ الديوان الخصوصى ، ويتكون من بعض كبار رجال الدين .

ــ الديوان العمومى ، ويتكون من كبار رجال الحرف والتجار .

وحين نعود الى بيتر جران نراه يعود بدوره الى رصد دور الفرنسيين المباشر ، أو غير المباشر ــ أثناء الحملة ــ فى اجهاض التطور الاقتصادى ، فقد كان هذا التطور قد بلغ درجة بعيدة من النضج ، اذ تؤكد وثائق هذه الفترة أن (أولاد العرب) ، التجار ، فى القاهرة والاسكندرية

ودمياط ورشيد كانوا يتحالفون مع الصيارفة من الاقباط المصريين ، لكى يحتفظوا بحقهم فى جنى ثورة بلادهم ، وتحالف الفرنسيين والتجار الســـوريين والمارونيين من ناحية أخرى .

ونستنتج من هذا كله ، ان دور الاعيان المصريين وصل الى درجة نافسوا معها المماليك ثم بدت فى القدرة على التأثير فى رموز السلطة العثمانية نفسها .

ومن البدهى أن نذكر أن دور أولئك التجار ظهر أول ما ظهر فى تعضيد قوة الازهر وعلمائه ، ومن ثم ، زيادة ارتباط أولئك العلماء بهذه القوة الصاعدة فى تجسيد الروح القومية التى كانت تتهيأ لتلعب دورا كبيرا فى بلادها .

وقد يكون من المفيد الآن أن نجاوز البنية الثانية — فترة اللقاء بين الشرق والغرب — الى البنية التالية لنسأل سؤالا واحدا :

الى أى مدى كان يمكن أن تتبلور الطبقة الجديدة من العلماء والاعيان لولا هذا الجزر الســلبى بمجىء القوى الجديدة الفرنسيين ومحمد على ؟

ان الاجابة تقتضينا أن نجاوز البنية (أ) والبنية (ب) لنصـــل منهما الى البنية (جـ) حتى نرى تأثير البنيتين السابقتين على البنية الاخيرة .

ورغم أن حدود البحث تقتضينا التوقف عند البنية الثانية لنرى من خلال المنهج النموذجى المقارن طبيعة هذه البنية . فان القفز الى البنية الثالثة والعود بسرعة الى فترة وجود الحملة ــ البنية الثانية ــ يتيح عرض الفرضية التى يعرضها البحث ويحاول البرهنة عليها .

ان ملاحظة جران فى هذا الشأن لا يمكن تجاهلها قط ، فبمجرد أن جاء عصر محمد على ، ومارس (الوالى) الجديد سلطاته ، حتى تدهور علم الحديث وما صحبه من علوم التاريخ والمنطق والأدب وفقه اللغة وما الى ذلك من العلوم التى تنتمى الى الفهم والعقل أكثر مما تنتمى الى التبرير والتعليل ، ومن ثم ، كان من الطبيعى أن يزيد الاهتمام فى البنيتين السابقتين بعلم الكلام الذى يستخدم عادة لتكريس الوضع القائم ، ووضع العقول فى اقفاص المحددات المطلقة ، وهذا لا يمنع من الاهتمام بالعلوم التطبيقية ولكن فى اتجاه تكريس الدولة (عسكريا) لتحقيق أحلام الوالى العسكرية .

ومن هنا ، فنحن أمام ملاحظات جديدة يمكن على ضوئها ملاحظة أمر آخر ، يظهر فى ضياع دور العلماء ورجال الدين ، وتلاشى مكانة التجار والاعيان من المصريين الاصلاء .

وبمجرد انتهاء حكم محمد على أو تحطيم ملكه ، فان علم الحديث يعود من جديد الى دائرة الاهتمام لكن فى وقت

يكون فيه التأثر الغربى قد وصل الى درجة قصوى من درجات التأثير ، فاذا السياسة الاقتصادية والفكرية التى عمل لها الغرب ونفذها تبدأ بعلم الحديث ، فاذا بالاهتمام يعود من جديد الى علم الكلام ، وتظل الحلقة مفرغة كما هى .

وبعد أن كان التطور الاقتصادى سـواء فى البنية الاولى ، والى حد ما فى البنية الثانية نابعـا من الروح القومية ومنجزاتها ، فقد أصبح التطور الاقتصادى الآن نابعا من جديد من حاجة الغرب ومتطلباته .

وبعد أن كان التطور الفكرى والدينى نابعا من البيئة المصرية والمراكز الاسلامية الاخرى فى الشرق — كدمشق واسطنبول — أصـبح الآن تابعا لثقافة الغرب وتوجهاته ومراكز الثقافة البعيدة فيه .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نصل الى بدهية أخيرة ، مؤداها، أن الحملةالفرنسية قد أجهضت التطورالاقتصادى والفكرى أو كانت مرحلة تمهيدية لهذا فدفعت بالبلاد الى أحضان الغرب ، وان كان يجب الاستدراك بالقول أن الحملة الفرنسية كانت مرحلة التخلخل — لا الاجهاض — وهى مرحلة أتمها الاستعمار الغربى بدأت من أواخر عصر محمد على حتى وصلت الى أقصاها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين وضع الغرب يده على مصر ، ثم ليضع يده على بقية أقطار العالم العربى .

غير أن التغيير فى البنى السياسية والاجتماعية لم يكن لينفصل كثيرا عن التغيير فى البنى الثقافية أيضا ، ومن هنا ، فمن الضرورى رصد بعض الملامح الثقافية فى هذا الوقت سواء فى الشرق أو فى الغرب ، ليتسنى لنا ، من ثم ، تفهم درجة التباين ودلالته .

ويجب أن نفرق هنا بين اثنين : الثقافة والعادات .

الثقافة ممثلة فى الغالب فى علماء الدين ـ المثقفين ـ والعادات فى عامة الناس ممن مثلوا الســـــواد الاعظم لسكان البلاد .

ورغم انه لا يوجد تفــريق كثير بين الثقافة وتقاليد الناس وعاداتهم ، فاننا هنا سنحتفظ بخيط رفيع بينهما لعمق الهوة التى يمكن أن تفصل بين الشرق والغرب حين نتحدث عن العادات وربما تضيق قليلا هذه الهوة حين نتحدث عن ثقافة (الشيوخ) وطقوسهم .

فى الشرق لم يكن خافيا المدى الذى صـــــعدت اليه الثقافة المصرية فى عديد من جوانبها أو هبطت اليه فيما بعد .

فمن ناحية ، لم نكن فى حاجة لكثير من الفطنة ، لندرك أن المهد السابق لحملة بونابرت عرف مجددين فى مجال التراث الاسلامى ، وأن التيار النقدى العقلى الذى ولده

أمثال المعتزلة والاشاعرة والفلاسفة ظهر له مريدون دائما، كما كان يتدفق على الازهر ، لمكانته ، العلماء من شتى انحاء العالم العربى (مثل الزبيدى) ، وقد بدا هذا التيار خاصة فى تطوير العلوم الدينية وعلوم اللغة والمعاجم وعلوم التاريخ — وان تشعبت المحاولات فى الطرق الصوفية ، أو مجال الأدب — اللذين ضعفا كثيرا فى فترة من الفترات . كما زادت المدارس العامة فى القاهرة والمدن الرئيســـية فضلا عن تعليم الابناء عند امام المسجد ، ويتحدث كتاب (وصف مصر) باســتفاضة عن دورات العلم فى الازهر وانقسام المدرسين والطلاب الى حجرات كثيرة (أروقة) تنقسم بدورها الى فروع كثيرة فى العلوم والمعارف .

ويمكن أن نستفيض هنا فى ارتقاء الثقافة الى درجة لا يمكن أن نخطئها قط ، وان كان قد صحبها هبوط آخر فى مجموعة التقاليد والعادات التى تتمثل فى الملابس والسلوك واللغة ، فضلا عن بعض السلبيات التى أشـــار اليها المؤرخون مثل المسلمات الغيبية كالحسد والطالع والسحر والمحافظة بشكل خاص ، وأيضا سلبية خاصية (النفاق) بين الفرد والحاكم لطبيعة العلاقة بين الفرد والحاكم فى البعد الزمنى ، وربما أيضا الانفعال أكثر من الفعل نتيجة للكبت والاستبداد الطويلين فى واد تهيمن عليه القوة المركزية .. وما الى ذلك من السمات التى يمكن تتبعها فى (يوميات) الجبرتى .

وهذا التناقض فى العادات خاصة هو الذى دفع بكثير من علماء الحملة الفرنسية وجنودها الى الاعتقاد بتخلف المصريين وتدنى حضارتهم المعاصرة لهم ، وكتاب الجبرتى (عجائب الآثار) خاصة يزخر بمثل هذه الخزعبلات التى تتوالى فى القرون السابقة لمجىء الحملة .

وباختصار ، فان الثقافة العربية بدت كجثة ممدده لا حراك فيها ، مظهرها يوحى بالموات وباطنهـــا يوحى بالنبض الذى لم يتوقف تماما على امتداد حقبة طويلة من الزمان .

وفى المقابل ، بدت الثقافة الغربية فتية صاعدة ..

لقد كانت الحضارة الفرنسية تمتلك فى هذه الاثناء قدرا كبيرا من وسائل العلم والتكنولوجيا الحديثة ، كما تملك النهج العلمى فى البحث والتجريب فى وقت كانت الحضارة الاسلامية قد ورثت من قرون بعيدة ثقافة ثابتة تعتز بها وتوارث تقاليد شابها الكثير من الخرافات ، وان كانت المسافة بين المثقفين والعامة ، حينئذ ، تضيق وتتســـع حسب الفترة التى يعيشونها .

لقد حملت الحملة الفرنسية عددا كبيرا من عقول اوروبا وفنانيها وعلمائها : مفكرين ، وكيميائيين وفيزيائيين وفلكيين وجراحين وأثريين ومعماريين . ويســـتفاد من المصادر الرسمية للحملة أن لجنة العلوم والفنون وحدها فقط كانت مؤلفة من (١٦٧) شخصا فقط .

ولنضرب مثلا بسيطا للقدر الفكرى الذى كان يحمله رجال الحملة فى جانب واحد ، وهو ، ان الجنرال كفاريللى كان يحمل قدرا كبيرا من الافكار الاشتراكية الحديثة الجريئة التى لم يكن ليتردد معها من أن يصرح بها فى حضرة بونابرت نفسه أثناء مناظرة زميل آخر له مدافعا فيها عن فكره ضد القوانين الرأسمالية السائدة (بونابرت فى مصر ، المصدر السابق ص ٧٠ — ٧٦) .

وباختصار ، ففى الوقت الذى راح الغرب يخرج من ظلمات القرون الوسطى الى عصر النهضة وما استتبعه من الكشـــوف الجغرافية والاصـــلاح الدينى ونمو الروح القومية والاهتمام بالادارة وتوحيد القوانين وشق الطرق وتطور المواصـــــلات ونشر التعليم وتطور النظـــريات السياسية وما الى ذلك .. فى هذا الوقت ، كان الشرق مازال أسيرا لحقبة بعيدة من الموروث الحضارى .

كانت أصول الحضارة فى الغرب تتطور فتستفيد بكل انجازات الحضارات الأخرى .

وأصول الحضارة العربية تكمن ثابتة وان تكن متوقدة وراء رماد السنين .

كانت الحضارة الغربية فى طور التطلع والازدهار .

والحضارة العربية فى طور التحين والانتظار .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نفسر حالة الانبهار التى بدت فى سلوك بعض العلماء المصريين وغالبية العامة سواء ممن أتيحت لهم فرصة الالتحام بعلماء الحملة أم ممن آثروا مراقبة ما يحدث واستيعابه .

وكثيرا ما أفاض الجبرتى فى شرح آلات العلماء الفرنسيين وأدواتهم الفلكية وماكينات التصوير ، وقدرات الرسم والتصميم ، كما وقف الكثيرون مبهورين أمام مظاهر صناعة الحكمة والطب الكيماوى وما الى ذلك وان لم يفقدوا روعهم كاملا .

لقد كانوا يدركون رغم الظواهر المدهشة حولهم ، أنهم ورثة حضارة أخرى لا تقل عن هذه الحضارة ، غير أن الحقيقة الناصعة كانت تشير دائما الى أن الحضارتين مختلفتان تماما .

غير أن هذا الاختلاف والتباين كان يحكمه هنا ناموس آخر ، هو ناموس التكوين الشرقى التقليدى عند مؤرخ مثل الجبرتى ، وسوف ينصب اهتمامنا الآن على موقف هذا المؤرخ المصرى ، شاهد العيان ، من الجماعات الدخيلة على مصر ، لنقترب — فيما بعد — من خلال أوراقه أمام طبيعة (اللحظة المتوقفة) فى البنية الثانية .

* * *

لنعد ، أكثر الى البنية (ب) ، وهى الفترة التى تقع بين عامى (١٧٩٨ — ١٨٠١) .. الفترة التى يبدو فيها موقف الجبرتى واضحا أشد الوضوح من القوى الدخيلة على مصر .

كما رأينا ، فان هذه البنية (ب) دخلت اطارا ثانيا بفعل مؤثرات البنية (أ) التى لحقتها واضافت اليها ، كما دخلت ، فيما بعد ، اطارا ثالثا بفعل مؤثرات البنية السابقة عليها ، قبل أن تصل الى مؤثرات البنية التالية لها .

ولنتوقف أكثر ، عند الجبرتى فى البنية (ب) ، فهى التى تهمنا هنا فى هذه اللحظة (المتوقفة) زمنيا ، لنرى ، الى أى حد ، تحددت رؤية المؤرخ الشرقى السـلفى فى الغالب بالنسبة الى القوى الخارجية التى كانت تمثل قوى شرقية احلالية مثل المماليك والعثمانيين ، أو قوى غربية احتلالية مثل الفرنسيين .

ان موقف الجبرتى يرتبط ، الى حد كبير ، بنظرية السياسة عند المسلمين ، وقد تركزت كلها حول الحاكم ، وبالتحديد حول شخصية الحاكم .

ولعل من المفيد أن ننظر فى هذا الى كتاب الماوردى (الاحكام السلطانية) . فهذا الكتاب ، « رغم أن مؤلفه ينتمى الى القرن الخامس الهجرى . والعنوان ذاته يدل على مركزية السلطان فى النظرية السياسية الاسلامية ،

التى يقال عنها أيضا بتعبير مساو تماما (نظرية الامامة) ، هذا الكتاب كله ، هو كتاب فى السياسة أى فى الحكم » ويدور حول الامامة وحول العمال الذين يختارهم الامام أعوانا له يسيرون أمور الأمة باسمه » فكل ما يدور فى الدولة انما يصدر عنه هو عن طريق نوابه . فالدولة هنا تستقى مبادئها السياسية من مركزية الامام بشخصه ، وهى مستقاه بدورها من الشريعة ، فالدولة هى شخص الحاكم .

وترتبط قضيتا الحرية والعدالة هنا بشخصية الحاكم أيضا ، حتى لو تحددت الحرية على أنها حالة ضد العبودية ، بمفهومها الذى ساد العالم الاسلامى فيما بعد وحتى جاءت الحملة الفرنسية ، كما أن العدالة — التى هى من شروط الوالى وواجباته — لا تعنى أكثر من التناصف ومنع التظالم ، أى ، أن الاتجاه الاخلاقى هو الهدف والغاية من العدالة كما كانت معروفة فى هذا الوقت .

ان العصر العثمانى شهد انعكاسا عمليا لافكار الماوردى ، فالسلطان هو كل شىء ، لم لا ، وهو ظل الله على الارض ، وقد كانت القيم السياسية ترتبط به فى المقام الاول ، وقد كان من الممكن أن يقال انه مع حضور الحملة الفرنسية على أرض العثمانيين بدأ الجيش العثمانى

يعرف طريقه الى الاصـــــلاح السياسى والتغيير فى القيم التقليدية ، غير ان هذا تم فى مرحلة متأخرة قليلا ، لم يلحقها الجبرتى ، وبالتالى ، شيوخ عصره ، ومن ثم ، فان الفكر السياسى السائد فى هذا الوقت لم يكن ليجاوز الفكر السياسى التقليدى من العود الى الحاكم ، ورؤية العدالة والحرية من خلاله ، وهو فهم لم يكن ليصل الى معانى الدستورية ومفاهيم الحرية والعدالة الاجتماعية كما عرفها الغرب القادم بواسطة الفرنسيين الذين شـــهدوا الثورة الفرنســـية بمفرداتها الســـــياسية التى لاحظها رفاعة الطهطاوى ، أكثر ، فى فترة تالية .

اننا سنرى موقف الجبرتى يدور حول القيم السياسية التقليدية طيلة وجود الحملة الفرنسية على وجه التقريب، حتى اذا ما كنا فى الفترة الاخيرة منها ، لمسنا تغييرا ما فى بعض المفاهيم الاسلامية للقيم السياسية ، لكنه تغيير لم يستطع الجبرتى أن يشهد فيه تحولا ملموسا ويسجله من خلال يومياته .

لقد كان مبعث التناقض بين يوميات الجبرتى وصحيفة بونابرت يعود الى التغاير ، الذى يؤكد بروز (الهوية) واختلافها .

لقد ارتبط الشرق هنا كما ارتبط الغـــرب هنـــــاك بمجموعة من الوشائج التى ميزت كل جانب فيه عن الجانب الآخر .

وسوف نرى من خلال التقليد والعادات ، خاصة ، موقف الجبرتى .

أما عن التقليد ، وبالتبعية الانطواء والحرص .. فان تفسير هذا يعود الى هذه (الهوية) الشرقية التى تنتمى الى الدين كما تنتمى الى اللغة وبالمثل تنتمى الى جملة العادات التى تتباين بين تقاليد اجتماعية وثقافية .

فمن الملاحظ أن موقف الجبرتى المتأرجح بين الاعجاب بالغرب والمرارة منه ونقده فى آن واحد كان يخفى فلسفة الفكر الشرقى فى الفترة التى قدر له فيها أن يلتقى بالفكر الآخر ، فلا تبقى مندوحة من الصدام بين حضارتين — لا اراداتين فحسب — ردود الافعال السريعة ، والتى نطوى أيضا طبقات بعيدة الغور فى الوجدان .

لقد بدا هذا الموقف خاصة فى تأييد العلماء فى وقت كان يظهر فيه العداء من قوى الاحتلال الغربى ، وهو ما يمكن أن نلحظه بجلاء ضمن جزئية (مظهر التقديس) ، اذ راح يتحدث عن التقليد الذى يرتدى زى الدين ، يؤثر الاشادة بالدولة الاسلامية — العثمانية — ليس هذا للحط من قدر المماليك ثم الهجوم العنيف على الفرنسيين واظهار الفرح بزوالهم .

اننا نرى فى هذا الكتاب — مظهر التقديس — وفى اغلبه ، هجوما حادا على الفرنسيين الذى سماهم هنا

(الكفار) و (كفرة الفرنسيس) و (دولة الكفر) و (عصابة الكفار) .. الى غير ذلك من تعبيرات تشـير الى ايثار التبعية للعثمانيين ، الذين هم — حينئذ — الممثلون للدين الاسلامى ..

واذا تغاضينا عن الميل السياسى الظاهر للعثمانيين فى هذا الكتاب استطعنا أن نستنتج الدافع وراء الموقف الخاص به فيما يتمثل فى رؤية الفرنسيين على أنهم قوى غازية يحتلون بلاده ، فضلا عن تطريز لغة البديع والزخرفة لكتاباته مما تشى بحقبة بعيدة طويلة عاشتها مصر بمعزل عن العالم الخارجى .

وفى جميع الحالات ، لم يكن هذا الموقف ليبرأ ، قط ، من سمة (التقليد) التى كانت وقفا على عدد كبير من شيوخ هذا الزمان ومن بينهم الجبرتى .

على أنه ما كاد ينتهى من هذا الكتاب الذى تم تأليفه فيما يبدو ، من الصـدر الأعظم ، وهو الرمز العثمانى للامام / الحاكم .. حتى بدأ فى تسجيل الجزء الثالث من كتابه الآخر : « عجائب الآثار » فى نفس الفترة التى شهدت غزو الفرنسيين وتغلغلهم فى شتى مناحى الحياة المصرية ، فأضاف الى مظاهر اللوم للفرنسيين فى الكتاب الأول اللوم والاعجاب بهم معا فى الكتاب الآخر ، اذ يلحظ أنه فى الوقت الذى كان يهاجم فيه الفرنسيين فى منشور نابليون الى

المصريين ، على سبيل المثال ، فانه فى الكتاب التالى راح يحذف هذا ، ولا يلبث مع تتابع اليوميات والسنوات فى « العجائب » ان بدأ اعجابه الخالص بمنجزات الفرنسيين الحضارية فى مصر من مثل تنظيم الديوان وأيضا نظام المحاكمة الذى اتبع مع قاتل كليبر (سليمان الحلبى) وما الى ذلك .

والاتجاه العقيدى ، خاصة ، يصبغ موقف الجبرتى فى وقت لم تكن الثقافة الغربية قد تسللت بعد فى وجدانه ، وهو سر التأرجح الدائم فى موقفه من الفرنسيين .

وتفصيل هذا أنه فى الوقت الذى يتحدث فيه عن احتفال الفرنسيين بأحد أعيادهم ، فانه يذكر قيام الجمهورية ولا يلبث أن يستنكر قتل الفرنسيين لملكهم وهو ما يفهم من لهجة الجبرتى فى أكثر من موضع « ذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيدا وتاريخا » (ج ٣ ص ١٧) ، وفى موضع آخر يشير الى المظاهر الكثيرة احتفاء بهذا العيد الذى لا يعرفه الشرقيون مشيرا الى اقامة العسكر من الفرنسيين بأمور الحراسة تحت أحد الاعمدة التى تدل على هذا العيد (لأنه شعارهم واشارة الى قيام دولتهم فى زعمهم) (ص ١٨) . غير أن الاستنكار يصل الى أقصاه فى كتابه مظهر التقديس ، اذ يبدو استنكاره لقتل الفرنسيين سلطانهم ، فيقول « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم وظهرت بدعتهم التى ابتكروها وخرجوا بها

عن الطرايق والملل جعـــــلوا ذلك اليوم عيدا وتأريخا » (مظهر التقديس ص ٦٠) .

ويلاحظ د . صـــــلاح العقاد فى بحثه (الجـــبرتى والفرنسيس) بندوة الجمعية التاريخية أن الجبرتى حين يتعرض لبعض الاجراءات الادارية والقضـــائية والتجارية التى اتخذها الفرنسيون ، فانه يقف منها موقفا عدائيا لأنه « بحكم تكوينه الثقافى وانتمائه الاجتماعى الى طبقة الملتزمين كان يبغض تدخل الادارة فى حيـــاة الناس اليومية عامة والاقتصادية بصفة خاصة ، وهذا ما يجعله معاديا لأية ادارة عصرية » .

والواقع أن هذا الموقف يعود الى تكوينه الشرقى الذى ينتمى لعادات مغايرة تماما لعادات الجهة الاخـــرى التى تحاول اتخاذ اجراءات لا تتفق بالضرورة مع الطابع الخاص للشرق والعقيدة ، بدليل أن هذا الموقف اقترب فيه كثيرا من موقف آخر بعد ذلك بقليل حين عارض موقف محمد على واجراءاته التى كانت تعود الى السمت الغربى وتطبيقه فى بيئة شرقية ، وهو موقف عدد كبير من شيوخ زمانه وممثليه .

على أن الموقف المعادى من قوى الاحتلال الفرنسى لم يمض عند الجبرتى ــ وشيوخ عصره ــ على وتيرة واحدة، فمن الملاحظ أن التأرجح بين الاعجاب بالحضـــارة الآتية

والتمرد عليها ظهر بوضوح بعد مضى فترة من الوقت عاين فيها الاهالى حقيقة الفرنسيين ، بما يشير الى أن مشايخ الازهر أنفسهم أصبحوا أكثر تقبلا للاجراءات الفرنسية فى فترة تالية ، وعلى سبيل المثال ، فانه حين طلب أعضاء الديوان تخصيص سجل للوفيات اقترحوا اضافة سجل للمواليد والايجار أيضا ، لأن ذلك يساعد على ضبط المواريث والعدة للمطلقات ، بما يتمشى مع عادة البلاد وتقاليدها التى تأبى ترك النساء الارامل بدون زواج جديد .

وقد راح فى هذا كله يبدى اعجابا لا حد له فى كثير من (اليوميات) الاخيرة خاصة بنظم الفرنسيين ومعاملاتهم سواء ما تمثل فى ابداء اعجابه بنظام الاطلاع أو بالتجارب العلمية التى اجريت أمامه ، كما أبدى ارتياحه لصداقة رفيقه حسن العطار للفرنسيين والذهاب الى معاملهم ، كما لم يستطع أن يخفى دهشته من موقف قوات الاحتلال التى كانت تدفع الثمن نقدا للاهالى لما يقدم لها من خدمات أو بضائع ، ويعجب أيضا لانفاق الفرنسيين بسخاء على وسائل التسلية .

وقبل أن نقف على صور الاعجاب يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على بعض صور المرارة والاحباط فى رؤيته لتصرفات الفرنسيين ومواقفهم .. فمن أهم الصور السلبية التى استتبعت نقده :

ـ « ان امرأة جاءت تشترى سمنا من رجل فقال لها لم يكن عندى سمن فكررت عليه حتى حنق منها فقالت له كنت تدخره حتى تبيعه على العثمانى تريد بذلك السخرية فقال لها نعم رغما عن أنفك وأنف الفرنسيين فنقل عنه مقالته غلام كان معها حتى انهوه الى قائمقـــام فأحضره وحبسه ويقول أبوه أخاف أن يقتلوه فقال الوكيل لا لا يقتل بمجرد هذا القول وكن مطمئنا فان الفرنساوية لا يظلمون كل هذا الظلم فلما كان فى اليوم التالى قتل ذلك الرجل ومعه أربعة لا يدرى ذنبهم وذهبوا كيوم مضى » (ج ٣ ص ١٣٨) .

ـ « تبرج النساء وخروج غالبيتهن عن الحشـــمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستـــانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير و .. »(١٦١) .

ـ « وأما الجوارى السود فانهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن اليهم أفواجا وفرادى وازواجا فنطن الحيطان وتسلقن اليهم من الطبقات ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك .. » (١٦٢) .

غير أن أهم الايجابيات التى غلبت على الصورة ، يرتبط ، كما أسلفنا ، بنظرته الخاصة لافعال الفرنسيين

من خـــــلال مفهومه الشرقى الخــاص ، ومن أهم هذه الايجابيات :

ـ « .. وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطل وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار .. (و) .. وقيدوا بذلك أنفارا منهم يتعهدون تلك الطرق ويسلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيــول والبغال والحمير وفعلوا هذا الشغل الكبير والشغل العظيم فى أقرب زمن ولم يسخروا واحدا فى العمل بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجــرتهم المعتادة ويصرفونهم من بعد الظهيرة ويســـتعينون فى الاشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المآخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل .. » (٣٣) .

ـ « قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل انهم من المتسلقين على الدور» (٣٩) .

ـ « أرسل سارى عسكر يسأل المشايخ عن الذين يدورون فى الاسواق ويكشــفون عوراتهم ويصـــــيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدهم العامة ولا يصـــلون صلاة المسلمين ولا يصومون هذا جائز عندكم فى دينكم.أو هو محرم فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا فشكرهم على ذلك وأمرالحكام بمنعهموالقبض على

من يرونه كذلك فان كان مجنونا ربط بالمرستان أو غير مجنون فاما ان يرجع عن حالته أو يخرج من البلد .. » . (١٤١)

ولم يكن هذا مبعث دهشة الجبرتي وحده ، اذ أن العادات « الغربية » كانت من أكثر الاشياء التى راح يسجلها لما تحتويه من تناقض بين الثقافتين ولما توحى به من أمور لم يفهمها كثيرا الشيخ الشرقى وان كنا نلمح فى دلالة ذكرها ميلا لم يصرح به من مثل « ضبط واحصاء من يموت ومن يولد من المسلمين » ــ ص ١٤٣ ــ و « تحرير دفتر الزواج » و « نظام غير قابل للتغيير فى ضبط الاملاك والتمييز الكامل عمن ولد ومات من السكان » ــ ١٤٤ ــ وما الى ذلك من أمثال التطعيم والدفن باذن وتبخير البيوت ونشر الملابس فترة الطاعون ، وهو ما كان يحمل استنكارا من جهة الناس لعدم فهمها لها أو تفسيرها الصحيح .

وعلى هذا النحـــو ، ففى المرحلة الاولى بدأ لومه للفرنسيين بشكل واضح ، وفى المرحلة الثانية تذبذب بين الاعجـــاب واللوم ، أما المرحلة الثالثة ، وبعد أن غادر الفرنسيون مصر فان موقفه منهم اقتصر على الاعجاب حين توفر له أن يعقد المقارنة مرة بينهم وبين فوضى العثمانيين والمماليك أو بينهم وبين أطماع الانجليز وتربصهم بالبلاد .

ان الذى يتابع البنى الزمنية حتى يصل الى البنية

الثالثة ـــ ج ـ يتأكد له أن الجبرتى عاد ، بعد لوم الفرنسيين ومعاينته لنظمهم وعاداتهم الى الاعجاب بهم .

ومما سبق ، يتأكد لدينا أن التأرجح انتهى من وجهة نظر الشـــــيخ الجبرتى الى ايثار حضارة الفرنسيين لا الانجليز ، وهو ايثار فى دلالته يعنى ايثارا للقيم الاسلامية التى وجد بعضها فى مواقف الفرنسيين ليس فى جنسهم أو دينهم بالضرورة .

ولهذا ، فان موقفه بين السلب والايجاب لم يكن كما زعم البعض يعود الى انبهاره بهذه الحضارة أو ابتعاده عن تلك ، بقدر ما يعود الى طبيعة التركيب الشرقى التى اذا أضفنا اليها وعيه وتفتحه .. انتهينا الى خصائص هذا الموقف من القوى الغربية .

ونصل الى الجزء الآخر من الســـــؤال حول موقف الجبرتى من بقية القوى الاخرى الدخيلة على البـلاد : العثمانيين والمماليك ؟

وهنا ، يلاحظ ، أن الجبرتى ، كثيرا ما انتقد الموقف العثمانى والمملوكى الذى قصـــــد به الدفاع عن ثغور الاسـلام ، وهذه الرؤية خاضعة لطبيعة الرؤية السياسية الخاصة به .

ان درجات غضب الجبرتى من هذه القوى أو رضاه عنها يرتبط بمفهومه الخاص حســب الموقف الذى عاينه

سواء فى البنية (ب) أو البنيتين السابقة والتالية لها ..
فبعد نزول قوى الفرنسيين واجتماع العلماء وأمراء المماليك ليتداولوا فى الأمر ، فان الجبرتى يسجل غضب العلماء من اهمال الدفاع عن البلاد وحمايتهم من الغزو الفرنسى عقب سماعهم بنزول الحملة بالاسكندرية ، وذلك عندما علق على الاجتماع الذى عقد بقصر العينى بالقاهرة ، ودارت فيه مناقشة حامية بين العلماء وأمراء المماليك ، فيقول فى مظهر التقديس « فركب ابراهيم بك الى قصر العينى وحضر عنده مراد بك والأمراء والقاضى والمشايخ وتكلموا فى شأن ذلك ، فقال بعض المشايخ كل هذا من تغافل أمر الثغور واهمال الأمور حتى تمكن العدو وملك ثغر الاسلام ، فقال مراد بك وايش نعمل واذا قصدنا تعمير ذلك وتحصينه تقولوا مرادهم العصيان على السلطان فهذا هو المانع لنا من ذلك » .

ولم يلبث الجبرتى أن علق على هذا بقوله :
« أوهى من بيت العنكبوت لأن الثغر من أيام على بيك لم يلتفتوا له جملة كاملة بل أخذوا ما كان به من آلات القتال والمدافع ومنعوا عنه المرتبات التى كانت للمرابطين والعسكر المتقيدين وأكلوا علوفاتهم وقطعوا عوايدهم ولم يبق به شىء من آلات الحرب الا بعض مدافع مكسرين لا تنفع ولا تدفع حتى أنهم احتاجوا مرة لضرب مدفع العيد بارود فلم يجدوا التعميرة بل اشتروها من عند العطار بعد أن كانت اسكندرية وابراجها فى غاية

العمارة والتحصين وحولها السور المتقن الذى اعتنت به الاوايل وبه ثلثمائة وستين برجا على عدد أيام السنة » .

وعندما صدرت توصية من المجتمعين فى قصر العينى بكتابة عرضحال الى الحملة العثمانية بخبر الحملة وارساله اليها ، فان الجبرتى راح يعلق على هذا بأسلوب لاذع ، نجده فى مظهر التقديس مطولا بعض الشىء : « ظنوا أن الموجوع أو المريض الملسوع يستمر سحاله حتى يأتيه الترياق من العراق » (مظهر التقديس) . ص ١ — ٢ ، بينما نجده فى (عجائب الآثار) مركزا دالا حين راح يردد معلقا على رسالة المجلس ساخرا « ليأتيه الترياق من العراق » (عجائب الآثار ص ٣) .

وآثار الجبرتى بعد ذلك لا تتوقف عن توجيه الانتقاد للمماليك ، فهو يؤكد مرة أن الشعب تنبأ بهزيمة مراد بك عند خروجه لملاقاة الفرنسيين مستطردا : « ثم انهم اتفقوا على خروج عساكر وصارى عسكرهم مراد بك ، فتحدث الناس بأن مراد بيك لم يتوجه الى جهة ويحصل لها بالنصر » وبعد هزيمة مراد بك يضيف : « .. فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزما وترك أثقاله وجملة من المدافع وتبعه عساكره وكان فى عدة وافرة (مظهر التقديس ٢ ، ٩) ، أما فى الكتاب الآخر ، فانه لاحظ أن المماليك : « صاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون اليه بدون ثمن » ، وبعد أن هزم مراد بك « ولى منهزما وترك

الأثقاف والمدافع وتبعه عساكره » ، كما يسهب فى خوف المماليك وأمرائهم الذى دفعهم الى النهب ونقل أمتعتهم (عجائب الآثار ٢ ، ٦) .

وهذه الحال التى عرف بها المماليك ليست فى فترة مواجهتهم للفرنسيين وحسب ، بل تمتد الى الوراء ، الفترة التى سبقت مجىء الحملة الفرنسية ، ويمكن بالعود الى الأجزاء الأولى من (عجائب الآثار) أن نرى استعراضا طويلا لمساوىء المماليك وظلمهم الذى يتمثل فى المنهوبات وقطع الطرق على المسافرين وتخريب المراكب فى النهر مما يزيد تعميق موقف الجبرتى منهم .

والمدقق فى مصادر الجبرتى يتأكد له أن موقفه انما كان موقفا عدائيا بسبب ظلمهم وافتقادهم لقيم العدالة ، وبعدهم عن تفهم دور الحاكم ورسالته .

غير أننا يمكن أن نجد فى مصادر الجبرتى ، أيضا ، موقفا آخر من المماليك ، ينبثق من طبيعة حكمهم فى الفترة التى حاولوا فيها أن يلتمسوا العدالة — فى أول حكمهم — ويبتعدوا عن الظلم ويدفعوا الى العمران ، وهذا لم ينكره قط ، فكثيرا ما أشاد بفضلهم ، فهو يذكر فى هذا عن المماليك : « لقد كان لهم سنن وطرائق فى مكارم الاخلاق والاحسان للخاص والعام ويتردد على منازلهم العلماء والفضلاء ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة

والتعبير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها فى مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها بأغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخوزنقات وفى مجالسهم جميعا ، فكل من دخل بيتهم من أهل العلم الى أى مكان بقصد الاعارة والمراجعة وجد بغيته ومطلوبه فى أى علم من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفا ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فان رده الى مكانه رده وان لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مرارا ويعتذرون عن الجانى بضرورة الاحتياج » كما سجل فى الجزء الثانى من مجلده (عجائب الآثار ص ٢١٦) .

وهناك فرق كبير بين هؤلاء المماليك ممن ينتمون فى الغالب الى القرون السابقة على القرن الثامن عشر ، وأولئك المماليك ممن ينتمون الى القرن الثامن عشر وخاصة فى نهايته كما عرفنا فى موقفهم من جنود الحملة الفرنسية .

وعلى هذا النحو ، فان موقف الجبرتى من القوى الدخيلة على مصر سواء ما تمثل منها فى الفرنسيين أو المماليك ، كان ينتمى الى موقفه من القيم السياسية بمفهومها الاسلامى خلال الفترة التى سبقت مجىء الغزو الغربى الى الشرق فى نهاية القرن الثامن عشر .

هذا الموقف الذى كان يرتدى زى الدين ويتذرع أحيانا بالسياسة أو المصلحة هو الطابع الغالب عليه ، وهو

الطابع التقليدى ، اذ بدا هذا الطـــــابع غالبا فى الفترة الاولى من البنية (ب) ، ومن ثم ، فانه فى نهاية هذه الفترة بدا موقفه فى التحول رويدا رويدا .

غير أنه فى جميع الحالات ، كان ينطلق من عالم خاص به وبغيره من شيوخ عصره .

***

وهنا نكون قد وصلنا الى تصور تحليلى نستنبطه من الأثرين (عجائب الآثار ــ كوريه بونابرت) .. دون أن نعزل أيا منها عن السياق التاريخى أو الجغرافى أو نضحى بالدلالات من أجل التصور التجريبى .

وهنا ، نتهيأ لفهم الظاهرة بالقبض على (نظام) مصغر داخلى يمكن به فهم القانون العام للعملية التاريخية وأحكامها .

وعلى هذا النحو ، فان وصولنا الآن الى (نموذج) معين يكون ضرورة للمرور على بنى زمنية سابقة وتالية تعمل على وضعه فى سياقه الطبيعى من الحركة الزمنية .

وهذا النموذج يحدد فى البنية (ب) من خلال وضع الأثرين ــ يوميات الجبرتى وصحف نابليون ــ جنبا الى جنب ، وبعد أن كانت المقارنة التحليلية تتم بين البنى ــ أفقيا ــ ، فانها هنا ستتم فى بنية واحدة ــ رأسيا ــ

ليتسنى لنا ، من ثم ، فهم العلاقة بين الاختلاف أكثر من الائتلاف والتغاير أكثر من التمايز ، كما يؤكد الاهتمام الذى سوف ينصب على النصوص أن ذلك سيتم فى اطار التداعى الزمنى (الثابت) كما هى الحال فى المادة (الخام) التى بين أيدينا .

وسوف نرتب مفردات (النموذج) على النحو التالى :

(أ) الاحتفال بوفاء النيل .

(ب) الاحتفال بالمولد النبوى .

(جـ) تقليد أمير الحج .

(د) خطاب شريف مكة .

(هـ) اجتماع أعضاء الديوان العام .

(و) ثورة القاهرة الاولى .

فلنتمهل أكثر عند هذه النماذج ودلالالتها .

الاحتفال بوفاء النيل :

كورييه دى ليجيبت ، الطبعة الأصلية ، ص ١ ، رقم ١ ، فى ١٢ فركتيدور ــ السنة السادسة للجمهورية :

القاهرة : وصف الاحتفال بعيد النيل ــ أول فريكتيدور من السنة السادسة للجمهورية (١٢١٣ هـ) .

« فى الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم توجه القائد العام وبصحبته جميع الجنرالات من هيئة أركان حرب الجيش ، والكخيا والباشا وأعضاء مجلس الملا وأغا حرس الباشا الى مكان مقياس النيل حيث احتشدت جماهير غفيرة على ضفافه وضفة القناة — المراد الخليج المصرى — ، وكانت المراكب حاملة الاعلام والزينات ، وقد اصطف بعض جنود الحامية بأسلحتهم ، مما أئتلف منه مشهد جميل مترامى الاطراف . ولما وصل موكب القائد العام الى مكان الاحتفال أطلقت المدافع عدة طلقات للتحية وعزفت الموسيقى الفرنسية والعربية بعض المقطوعات اثناء العمل فى قطع حاجز المياه . وما أن تم قطعه حتى تدفق الماء الى القناة وانساب منها بغزارة الى الريف حول القاهرة لاخصاب أرضه .

وقد نثر الجنرال القائد العام آلافا من القطع النقدية على الجماهير ، كما القى قطعا أخرى ذهبية على موكب مر به . ثم خلع على الملأ عباءة سوداء كما خلع على نقيب الاشراف عباءة بيضاء ، ووزع ٢٨ قفطانا على الضباط . وبعدئذ عاد الموكب الى ميدان الازبكية يتبعه جمهور ضخم ينشد أناشيد المديح فى النبى وفى الثناء على الجيش الفرنسى ، ويلعن البهوات (البكوات) لمظالمهم وطغيانهم ، ويهتف بأن جنود فرنسا جاءت لتخليصهم برحمة الرحمن من الشقاء وقد انتصرت . وفاض النيل فيضانا لم تشهد البلاد

أفضل منه منذ قرن من الزمان . وهذه نعمة من نعم الله » .

وفى يوميات الجبرتى (عجائب الآثار ..) ج ٣ ص ١٤ ، ١٥ جاء :

واستهل شهر ربيع الاول بيوم الاثنين سنة ١٢١٣ هـ

« (وفى يوم الجمعة خامسه) الموافق الثالث عشر مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فأمر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين ونادوا على الناس بالخروج الى النزهة فى النيل والمقياس والروضة على عادتهم وأرسل صارى عسكر أوراقا لكتخدا الباشا والقاضى وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صحبها وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قصر قنطرة السد وكسر الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونقوطا حتى جرى الماء فى الخليج وركب وهم صحبته حتى رجع الى داره وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى والشوام والقبط والاروام والافرنج البلديين ونسائهم وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها » .

وهنا ، نجد عددا من الملاحظات تؤكد هذا التغاير

الحاد بين حضارتين ، وهى ملاحظات لا تفوت القارىء المدقق ، لعل من أهمها .

ـــ يقول الجبرتى (وفى يوم الجمعة خامسه) . فهو يتكلم بأسلوب العصر الذى يحيا فيه ولا يهمه ذلك الانضباط الذى تتصف به الروح العربية والتى تتمثل فى قول المنشور (فى الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم) .. وفى هذا دلالة كافية لتبين ـــ فضلا عن النظام ـــ أهمية الوقت وطبيعته لدى كل من الطرفين ، وما يتبعه ، من تعميق المفارقة بين حضارتين لكل منهما عالمه .

ـــ يقول الجــــبرتى (الموافق الثالث عشر مسرى القبطى) ذلك ، لانه يتكلم عن وفاء النيل وهذا يتعلق بأوقات الزراعة ، ومما يؤكد خلاف العالمين واختلافهما أن الجبرتى يتعامل زمنيا بشكل مختلف عن غيره .

ـــ ان الجبرتى يكتب شهرين (عربى ـــ قبطى) بينما المنشــــور الفرنسى يكتب بتاريخ (الجمهورية) الخاص بالفرنسيين وظروفهم الخاصة ، فى وقت يكتب فيه العالم بتاريخ (ميلادى ـــ رومى) ، بينما يكتب العثمــــانيون بالتاريخ (الهجرى ـــ المالى) .

ـــ ويؤكد هذا أنه بينما يقول الجبرتى فى تعبير محلى يعبر عن التقاليد الشرقية (كان وفاء النيل المبارك) ، فان المنشور الفرنسى ينطق بتعبير لغوى غربى خالص حين يقول (وصف الاحتفال بعيد النيل) .

ــ ويأتى فى هذا قول الجبرتى (صارى عسـكر) بينما المنشور الفرنسى يكتب (القائد العـام) الى رتبة الجنرال بالمنطوق الغربى فى وقت يتبين فيه أن صـارى عسكر لفظة فارسية الاصل محرفة الى العربية .

ان لفظة صارى بهذا المفهوم تعنى فى لغتها الاصلية رأس ، بينما العسكر تعنى الجنود وبهذا يستقيم المعنى الذى نورده هنا .

ــ النظر أيضا الى دلالة لفظة (العقبة) وهو مركب الاحتفال بوفاء النيل فى الشرق ، وهو يختلف عن لفظة (غلايين) وهى السفينة الكبرى كما لم يعرفها الشرق حينئذ .

ــ بينما يذكر المنشور الفرنسى كلمة (الملا) ولا نجد ذكر هذا الاسم عند الجبرتى ، فهو ينقل ظاهر حال هذا الوقت ، فالمترجم مسيحى شامى اذ ينقل الفاظا شامية غير مألوفة أو دارجة فى مصر .

ــ يضـاف الى ذلك عديد من الالفاظ والمقاطع مثل (كسروا الجسر) بينما المنشور يقول (فى قطع حاجز المياه) وأيضا فى (عملوا شنك مدافع) ، والشنك هنا محرف عن (الجنك) وهى تعنى بالتركية كلمة « حرب »، كما أن (النقوط) فى العربية التى كتب بها الجبرتى يقابلها فى (الكوربيه) عبارة (نثر الجنرال القائد العام) .

وأيضا (حتى جرى الماء فى الخليج) وتأتى فى المنشور الغربى من خلال لفظة أخرى (القناة) .

ـ لا يجب اغفال معنى مقطع الجبرتى (الافرنج البلديين) ، وهو مقطع يقصد به المقيمين فى مصر من غير المصريين . كما أن (قليل من الناس البطالين) يقصد بها أولئك الذين يتعاونون مع الفرنسيين فهم فى نظره سيئون جدا الى درجة أنهم أكثر خيانة وسوءا من أولئك الذين أطلق عليهم فى مواضع الاستهجان والاستنكار (الحرافيش والحشرات) .

ـ ولا يجب أن يفوتنا أن نلاحظ أيضا أن لهفة نابليون على تأكيد الحماسة الشعبية لا تقل عن لهفته فى أن يستتب له الأمر ، وقد بدا هذا أيضا من لغة الاثرين ، ففى حين ينفى فيه الجبرتى وجود مثل هذا الحماس من الجمهور الضخم فى مثل هذا العيد الذى لم يخرج منهم (أحد) ، فان نابليون يقول من خلال صحيفته انه عاد الى ميدان الازبكية بعد الاحتفال ويتبعه (جمهور ضخم ينشد اناشيد المديح وفى الثناء على الجيش الفرنسى) .

مما يشير الى تباين الدوافع التى تجاوز اللغة ودلالاتها الى المواقف وطبيعتها .

وثمة ملاحظات أخرى كثيرة يمكن التعرف عليها من السطور أو ما بينها ، خاصة ، عند الجبرتى ، والتى لم

يشر الى تبريرها بشكل مباشر ، وهى كثيرة ، لعل من أهمها أنه لم يذكر كلمة (الجمهور) فى كل ما كتبه عن ثورات المصريين ، اللهم الا ، حين وصـــل الى ثورة المصريين على خورشيد (باشا) فقط ، وهذا كان يسبقه تطورات كثيرة تفسره .

وهذا لم يحدث حتى ذكرها نابليون .

الاحتفال بالمولد النبوى :

الكورييه ـ الطبعة الأصلية ص ٢ ـ رقم ١

« واحتفلت البلاد هذه الايام احتفـــالا رائعا بمولد النبى ، فأضيئت منازل القـــائد العام والجنراى ديبوى Dipee والشيخ البكرى بالانوار الساطعة طول خمسة أيام . وفى الساعة العاشرة من كل ليلة من ليالى العيد سارت مواكب المسلمين فى المدينة وهى تنشد أناشيد المديح فى النبى كما أقامت حلقات الذكر على أضـــواء المشـــاعل . وحوالى الســاعة الثامنة من ليلة أمس قام بعض جنود الحامية باستعراض عسكرى رائع . ثم توجه لفيف من الضباط الفرنسيين بهيئة أركان الحرب يتقدمهم حملة المشاعل ورجال الموسيقى الى منزل الشيخ البكرى نقيب الاشراف . وقد أطلقت المدافع عدة طلقات ايذانا ببدء مسيرتهم ، كما أطلقت طلقات أخرى لدى وصولهم الى منزل النقيب .

وبعد أن تناول القائد العام طعام العشاء فى مأدبة فاخرة بمنزل الشيخ البكرى عاد الى مقره ، وأجرى عدد من المصريين العابا نارية وقاموا بها على أحسن وجه . وفى صباح اليوم التالى قام القائد العام بتقديم عباءة من الفراء الفاخر الى الشيخ البكرى بوصفه نقيبا للاشراف وهو المنصب الذى كان يشغله عمر أفندى من قبل . وقد حضر الاحتفال بتقديم العباءة أعضاء الديوان » .

وفى يوميات الجبرتى ، ج ٣ ص ١٥ ، جاء :

« (وفيه) سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الامور وتوقف الاحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك وأعطى له ثلثمائة ريال فرانسا معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم وأرسل الطبلخانة الكبيرة الى بيت الشيخ البكرى واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الاصوات مطربة وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد فى الهواء » .

وكما رأينا سالفا ، فان وصف الجبرتى لطقوس المولد النبوى يرينا أن المصريين تعاملوا مع الغربيين بسلبية كان اهم مظاهرها هنا اعراضهم عن الاحتفال

بأكثر الاعياد ايثارا عليهم ، وكان السبب فى عدم قيامهم بالاحتفال هى الظروف ، وهو ما لا يظهر — بالطبع — من منشـــــور الـــكوريبه ، فالعالمان مختلفان والثقافتان متباينتان .

وثمة ألفاظ تؤكد الفاصل الحضارى فى معنى لغوى ومعنى حضـــارى أبعد أثرا من كل هؤلاء ، من مثـــل (دبادبهم) ، وهى عبارة عن حملة الجنود الضخمة ، كما أن لفظة (الطبلخانة) التى يضيف اليها لفظة (الكبيرة) انما تعنى الفرقة المصرية ، أما (البركة) فقد كانت فى الازبكية ، و (طبلات النوبة) هى البروجى ، ثم (الفروة) وما الى ذلك من مظاهر الاحتفال .

كما يلحظ من طبيعة اللغة التى يستخدمها الجبرتى نفسه العامل الداخلى الذى يحدد التغاير بين الحضارتين، فعلى مستوى الشخصيات ، نجد هذا يتمثل عند الجبرتى فى السلبية التى امتدت اليه ، وهذا يظهر من ذكر الجبرتى محاولات العديد من الفرنســيين لاسترضاء الشـــــيوخ — وبالتبعية العامة — بتشجيع الموالد والتبرع لها ، فان ذلك لم يثر رد فعل حسن فى أعماق الجبرتى ، لانه سلفى النزعة ، وسيبدى اعجابه فيما بعد بالحركة الوهابية ، فى حين يستنكر الموالد وما يصحبها من بدع ومجون .

وهو ما سيلاحظه د . صلاح العقاد بعد ذلك بحوث ندوة الجمعية التاريخية . بحث الجبرتى والفرنسيس ص ٣٢١ .

تقليد أمير الحج :

الكوربيه ، ص ٦ رقم ٣

« عين القائد العام السيد مصطفى أميرا للحج الى مكة وقد ألبس اليوم امام جميع موظفى الدواوين وأشراف البلد معطفا جميلا لونه أخضر لهذه المناسبة وقد أهداه الجنرال بضع جواهر وحصانا عليه سرج جميل وحصانا محلى بأحسن كسوة .

وعند مغادرته الحفل ودعته ست طلقات أطلقها مدافع بطارية القلعة » .

وفى (يوميات) لـ الجبرتى ، السـابق ، ص ١٦ جاء :

« فى ربيع الاول ١٢١٣

(وفى عشرينه) قلدوا مصطفى بيك كتخدا الباشا على امارة الحج فحضروا عند المحكمة عند القاضى ولبس هناك الخلعة بحضرة مشـايخ الديوان والتزام بونابرته بتشهيل مهمات الحج وعمل محلا جديدا » .

وكما نرى ، فان هناك ألفاظا تؤكد الواقع مثل كتابة لفظتى (بونابرته) و (كلهيبر) وتفسيرها قد يتحدد فى اكثر من نقطة :

أما التقليل من شأن صاحب الاسم فى الحديث ..
وأما أن يكون هو أسلوب النطق فى هذا الوقت ..

ومما يجدر بالذكر ان هذا النطق (بونابرته) هو أقرب الى النطق الايطالى ، الذى ينحدر ، بالتبعية ، من لفظة (بونابرت) ، فالنطق الايطالى هو (بونابرته) نسبة الى خصائص الايطالية نفسها ، وهو حينئذ لا يخرج فى الحالين عما كان قائما .

ويأتى فى هذا أيضا قول الجبرتى (خلعة) بينما تكتبها الكوريبه (معطفا) ، والمفارقة بين لفظتى (قلدوا) و (عين) أن الاولى هى لغة الجبرتى بينما الثانية أسلوب الغرب ، الاولى تعبر عن حضارة لاتزال تعيش فى التقليد والاخرى حضارة جاوزته الى مرحلة جديدة من مراحل التطور .

ويأتى فى هذا مقطع مثل (كتخدا الباشا) الذى يضيف اليه الجبرتى آخر هو (مشايخ الديوان) الذى يستبدل به الكوريبه مقطع (موظف الدواوين واشراف البلد) .

وتؤكد كل البيانات الاولى التى أطلقها بونابرت حين هبط الى ثغر الاسكندرية مثل هذا الرأى الذى نذهب اليه الآن ، وتكرر كل وجهات النظر الخاصة بالفرنسيين على

معرفتهم بقيم المصريين واحترامهم لدينهم واستمرار مراسيم هذا الدين كما هى وقهر المماليك أعداء الشعب المصرى فى أول بياناتهم ، كما تتحدث عن المناسبات الدينية التى سبق أن أشرنا اليها مما يؤكد على ذكاء الغرب القادم عبر المحيط ، فقد جاء فى منشور نابليون ، وهو يختتم ، عبارة لا تخلو من معنى ، اذ يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك) ..

كما أضيفت العبارة التالية فى البيان (انه صادر من الحكومة الفرنسية المبنية على أساس الحرية والمساواة)، مؤكدا أكثر على ضرورة نصر المصريين على المماليك مضمنا هذا البيان بعبارة لا تخلو من معنى (وأصلح حال الأمة المصرية) كما نقل الجبرتى عن المنشور الفرنسى ..

خطاب شريف مكة :

الكورييه ، السابق ، رقم ٦

يوم التكملة الثانى ــ السنة ٦ الجمهورية

ترجمة خطاب موجه الى شريف مكة من مشايخ وأعيان القاهرة :

« بعد تضرعاتنا الحارة الى الله التى تلهج بها السنتنا دائما أبدا ليحفظ مولانا امير المؤمنين والتاج الملكى للذرية

الهاشمية وسليل النبى الشريف غالب سلطان مكة حفظه الله ليرمقه برعايته الى أعلى مراتب المجد ويجنبه أى سوء تأتى به الايام فى تعاقب الليل والنهار لما أكتسبه من بركات جده المجيد وهو أقدر الشافعين .

نتشرف بابلاغ مولانا الذى لا يكف أبدا بعبقريته عن رعاية مصالح الدين والمؤمنين والسادة آل عبد المناف أحد مشاهير أجداد أوليائنا الشرفاء وعلماء الاسلام فى مكة والقضاة والأئمة الخطباء وعموم تجار وموظفى الحكومة فى المدينة المقدسة أن اليوم السابع من شهر صفر الذى كان يوافق يوم السبت أقبل الجيش الفرنسى على أراضى الجيزة على ضـــفاف النيل الغربية وشن فى نفس اليوم هجوما على المماليك ... (و) ... وفى صباح اليوم التالى توجه وفد من علماء الشريعة وأعيان القاهرة الى الجيزة طالبين الحماية والرعاية للمصريين ماعدا المماليك وأتباعهم واستجاب القائد العام الى طلبهم هذا . ثم طلب الوفد أن تلقى كالمعتاد خطبة الجمعة التى تعـــــود الأئمة الخطباء القاءها فى المساجد يوم الجمعة عند صلاة الظهر متضمنة الدعاء لصاحب العظمة السلطانية ، فوافق القائد العام على أن تلقى هذه الخطب كما كانت وأضاف أنه من أخلص أصدقاء السلطان العثمانى وأنه يحب جميع الموالين له ويعتبر أعداء السلطان أعداء له شخصيا .

وأمر فى الحال أن تفتح أبواب الجوامع للمصـــــلين

لاداء الشعائر الدينية والآذان وتلاوة القرآن بكل حرية فى مدينة القاهرة كالمعتاد .

وتكرم أيضا بابلاغ الوفد أنه يسلم فى قرارة نفسه بأن الحقيقة التى لازاغ فيها هى أن الله هو الله وحده وان معظم الفرنسيين يكنون لنبينا والقرآن أعظم تبجيل وأكثرهم مقتنعون بسيادة الاسلام على جميع الاديان الاخرى ودلل القائد على قوله هذا باطلاق سراح جميع الاسرى المسلمين الذين وجدهم فى جزيرة مالطة بعد الاستيلاء عليها .

عندما عاد الحجاج من مكة واقتربوا من القاهرة ذهب القائد العام بنفسه لملاقاتهم فى مديرية الشرقية بعد سماع الاخبار بأن بعض الاعراب اللصوص والمجرمين قد سلبوهم متاعهم وخيراتهم . فاستقبلهم الجنود الفرنسيون وزودوا من بقى منهم على قيد الحياة بالخيول والطعـــام والزاد واسعفوا الجياع والعطاش .

وكان القائد العام قبل ذهابه الى الشرقية قد كتب الى قافلة الحجاج يطلب منها العودة رأسا الى القاهرة حيث تجد أحسن استقبال ولكن للأسف هذه الخطابات لم تصل الى رجال القافلة الذين لاقوا مصيرهم المحتوم .

افتتحت قناة مدينة القاهرة ــ الخليج ــ هذا العام باحتفالات غير عادية ارضاء للمؤمنين دون شك وتبديدا لمخاوفهم وهمومهم .

أجرى القائد توزيع مبالغ كبيرة من المال على سبيل الصدقة على الفقراء والمعوزين وأقام وليمة تكريما لاعيان البلد . كذلك أنفق أموالا كثيرة احتفاء بمولد النبى وسيد المرسلين وأقيمت احتفالات شيقة بهرت أنظار المؤمنين .

انا لله وانا اليه راجعون — يجب ألا يخفى عليكم أن القائد أبدى رغبة صادقة فى تعيين أمير الحج واتخاذ جميع الاجراءات التى تسبق رحيل قافلة الحجاج . وكان من رأينا معه أن يسند شرف هذه المأمورية الى السيد المحترم الأمير مصطفى أغا وهو من رجال صاحب السعادة أبو بكر باشا حاكم القاهرة ، ونحن نرجو أن يلقى هذا الاختيار وقعا حسنا من الباب العالى تأكيدا لحق من أعز الحقوق على قلبه . لذلك فقد أضفى هذا الاجراء البهجة والسرور وأدخل الطمأنينة على قلوب جميع المسلمين .

يبدى قائد الجيش الفرنسى نشـــاطا كبيرا واخلاصا عظيما لمصالح الحرمين ويتفقد كل ما يلزم عمله بشأن رحلة قافلة الحجاج .

هذا هو ما أوصينا به لتكونوا على علم ، باعتبارنا شـــهود عيان بالعناية الفائقة التى يخص بها هذا الأمر المهم لكى تعملوا ما ترونه مناسبا من جانبكم .

السلام والف سلام على هذا الرسول المجيد الذى أتى يعلن الحقيقة على العالمين وقد وهبه الله كل الفضائل

والشمائل . سلام الله أيضا على أهله وصحبه فى رسالته السماوية .

عمل بالقاهرة فى ٢٥ من ربيع الاول سنة ١٢١٣ هجرية وقد ذيل بامضاءات عديدة جدا » .

وفى يوميات الجبرتى ، ج ٣ ص ٢١ جاء فى نفس الموقف :

« (وفيه) كتبوا من المشايخ كتابا ليرسلوه الى السلطان وآخر الى شريف مكة ثم أنهم بصموا منه عدة نسخ ولصقوها بالطرق والمفارق وصورته ملخصا بعد الصدور ذكر ورودهم وقتالهم مع المماليك وهروبهم وان جماعة من العلماء ذهبت اليهم بالبر الغربى فامنوهم وكذلك الرعية دون المماليك وذكروا فيه أنهم من أخصاء السلطان العثمانى وأعداء أعدائه وان السكة والخطبة باسمه وشعائر الاسلام مقامة على ماهى عليه وباقية بمعنى الكلام السابق من قولها أنهم مسلمون وانهم محترمون القرآن والنبى وأنهم أوصلوا الحجاج المشتتين وأكرموهم وأركبوا الماشى وأطعموا الجيعان وسقوا العطشان واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر وعملوا به شانا ورونقا استجلابا لسرور المؤمنين وانفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقراء وكذلك اعتنوا بالمولد النبوى وأنفقوا أموالا بشأن انتظامه وأتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المحترم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والى مصر حالا فاستحسنا ذلك لبقاء علقه الدولة العلية وهم أيضا

مجتهدون فى اتمام مهمات الحرمين وأمرونا أن نعلمكم بذلك والسلام .

ويلاحظ هنا أن التباين واضح أشــد الوضــوح بين الأثرين ، فقد ارتدى زيا وطنيا أو دينيا ، غير ان التدقيق فيه يميط اللثام عن فارق حضارى أبعد أثرا من الدلالة المباشرة .. هذا يبدو فى (بريد) نابليون بالقدر الذى يبدو فى (يوميات) الجبرتى .

عند نابليون لا نخطأ قط التوســل باللهجة الدينية ومحاولة الافادة منها لدى المسلمين وهو ما يظهر على لسان الخطاب الموجه الى جهات دينية من مشايخ مصر وأعيانها الكبار ، حين يظهر الثناء على الفرنســيين ثناء عاليا متمثلا فى ذكر مآثرهم من فتح المساجد واقامة الموالد واستقبال الحجاج وما الى ذلك .. أما عند الجبرتى ، فاننا لا نخطأ موقف المؤرخ العربى الفطن ، الذى يتحدث فيقدم الفعل الموحى (كتبوا ، بصموا ، الصقوا .. الخ) الى غير ذلك مما يشير الى أن ما جاء به المشايخ والتجار والكبار انما هو بناء على طلب الفرنسيين المحتلين وليس عن اراداتهم وحسب .

اجتماع الديوان :

ومع معاينة النصوص والتوقف عندها يتأكد لنا زيادة الهوة بين الطرفين ، وهو ما نجده فى تضــاعيف هذين النصين أيضا :

كوربييه رقم ١١

٢٠ فاندمير ـــ السنة ٧ للجمهورية

« اجتماع الديوان العام فى مصر

يجتمع الآن فى القاهرة تحت اســــــم الديوان العام نواب من جميع الاقاليم فى القطر المصرى ، وذلك بناء على أمر القائد العام ـــ وقد عقدوا جلستهم الاولى فى ١٦ فاندمير وكان المواطنان مونج وبرتوليه يمثلان الفرنسيين فى هذه الاجتماعات بصفة مندوبين . وقد زادت من عظمة هذا الاجتماع ، الملابس الاسلامية الجميلة ورزانة وهدوء أصحابها مع من كان يرافقهم من كثرة الاتباع .

لقد اختير الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للاجتماع .. وسنحيط قراءنا علما بما ستقوم به هذه الهيئة سواء فى المجال السياسى أو فى مجال خدمة العلم والحضارة » .

وجاء فى يوميات الجبرتى ، ج ٣ ص ٢٢ ، ٢٣

« (وفى يوم الجمعة رابع عشرينه) نبهوا على المشايخ والاعيان والتجار ومن حضر من الاقطار بالحضور الى الديوان العام ومحكمة النظـــام بكرة تاريخه وذلك ببيت مرزوق بيك بحارة عابدين فلما أصبح يوم السبت أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قائد أغا بالازبكية فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد

وحضر الوجاقات وأعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومديرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعا موفورا فلما شرع بهم المقام شرع ملطى القبطى الذى عملوه قاضى فى قراءة فرمان الشروط والمناقشة فابتدر كبير المدبرين فى اخراج طومار آخر وناوله للترجمان فنشره وقرأه وملخصه ومضمونه الاخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد وأنه أخصب البلاد وكان يجلب اليه المتاجر من البلاد البعيدة وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاول ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه فملكه أهل بابل وملكه اليونايون والعرب والترك الآن الا ان دولة الترك شددت فى خرابه لانها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس الا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم ومن سوء ظلمهم ثم ان طائفة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباء فقدموا وحصل لهم النصرة ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة وان عرضهم تنظيم أمور مصر واجراء خلجاتها التى دثرت ويصير لها طريقان الى البحر الابيض وطريق الى البحر الاحمر فيزداد خصبها وريعها ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك

استجلابا لخواطر أهلها وابقاء للذكر الحسن فالمناسب من أهلها ترك الشـــغب واخلاص المودة وأن هذه الطوائف الحاضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر من ذلك ما يليق صـــنعه الى آخر ما سطروه من الكلام قلت ولم يعجبنى فى هذا التركيب الا قوله المفعمة جهلا وغباوة بعد قوله اشتاقت أنفسهم ومنها قوله بعد ذلك ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد الى آخر العبارة ثم قال الترجمان نريد منكم يامشايخ ان تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا ورئيسا عليكم ممتثلين أمره فقال بعض الحاضرين الشيخ الشرقاوى فقال نو نو (أى لا لا) وانما ذلك يكون بالقرعة فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس فأتم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم فى الذهاب والزموهم بالحضور فى كل يوم » .

ومع تتابع المقارنة ، كما نرى ، يعمق التباين أكثر ويتأكد .. فبينما نجد لفظة (امر) مشفوعة بالقائد العام نجد الجبرتى يذكر لفظ (نبهوا) و (أعادوا التنبيه) ، وهو ما يعيد على الاذهان دلالة الالفاظ فى كشف السلوك الذى هو من صـــور الذات والخاصية الحضارية . كما يلفت النظر هنا ، أيضا ، ان صحيفة نابليون تذكر هذه المظاهر التى تقترب من الســلوك الدســـتورى ، فان

الجبرتى بعد أن يسرد بعضـــــها لا يعجبه فيها الا مقطعا واحدا هو (المفعم جهلا وغباوة) ، وهو ما يشير الى أن الاحتفاء بالبيان والمجاز فى الحضارة العربية هو احتفاء يفوق النظام والوسائل الدستورية بمعناها السياسى فى الحضارة الاوروبية .

ولا يمكن هنا أيضا أن نغفل الوصف البدهى لانتخاب أو اختيار الحاكم هنا ، فبينما تذكر اللغة الفرنسية أن ذلك تم بواسطة الاختيار بالطريقة الدستورية ، فان الجبرتى لا يعثر فى التعبير عن هذا الا كلمة مثل (قرعة) .

وبين الاختيار واجراء القرعة معان ظاهرية ودلالات أكثر بعدا وعمقا فى الحضارتين الشرقية والغربية بالطبع .

وربما أشرنا الى وعى صـــــحيفة نابليون بالواقع المصرى منذ أبعد حقبـــــات التاريخ مما يلح على الدافع القومى ، فى وقت ، بأن الدافع الاسلامى مازال هو الدافع الوحيد ، على وجه التقريب ، الذى يرسم الملامح العامة لاقطار الشرق العربى .

ورغم أننا سنلحظ فى نهاية فترة الوجود الفرنسى فى مصر وعيا فائقا لدى الجبرتى وعديد من (المشـــــايخ) المصريين فى تفهم هذا التباين بين الشرق والغرب ودلالته ، فاننا سوف نلحظ مراحل هذا التباين تمضى رويدا رويدا .

وقبل أن نصل الى نهاية هذا السياق ، سوف نختار نصين يعبران أكثر منهما عن حالة المفارقة بين الحضارتين، وهما نصان محملان بالمعانى الفياضة التى تؤكد هذا .

منشـــــور الثورة :

١٠ بروميير— السنة السابعة للجمهورية

القاهرة فى ٦ بروميير سنة ٧

« فى فجر يوم ٣٠ فاندميير ظهرت بعض التجمعات فى مدينة القاهرة وفى الساعة ٧ صباحا تجمع جمع غفير ، أمام باب القاضى ابراهيم حاتم أفندى وهو رجل محترم باخلاقه وصفاته . ذهب اليه وفد من عشرين شخصا من أبرز الشـــــخصيات وأرغمه على أن يمتطى جواده ويصحبهم الى .. ثم مضوا فى طريقهم الى .. وبينما هم فى الطريق وجه رجل عاقل رشيد نظر القاضى الى أن الجمع يضم عددا قليلا وغير منظم من الرجال ، كل ما يريدونه هو تقديم عريضة فبهر القاضى من هذه الملاحظة مقتنعا بها ثم ترجل عن جواده وذهب الى منزله .

ولكن ذلك لم يرق للجماهير الغاضبة فانقضت عليه وعلى أهل بيته ورجمتهم بالحجـــــارة وضربتهم بالعصى وسلبت ونهبت ما فى المنزل .

ولما ذهب الجنرال دبوى قائد الحامية الى مـــكان

الحادث فى غضون ذلك وجد جميع الشوارع قد سدت أمامه وكان هناك قائد كتيبة تركى فلما رأى الضوضاء واستحال عليه تهدئتها بالحسنى أطلق النار للارهاب فاستشاطت الجموع غضبا وزاد هياجها فهاجمنا الجنرال دوبوى بجنده وشنت كل من تصدى له وفتح لنفسه طريقا ولكنه أصيب بضربة رمح تحت ابطه فانقطع شريان أمهله الحياة لمدة ثمانى دقائق فقط .

وتسلم القيادة من بعده الجنرال بون وقصفت المدافع وتبودلت النيران فى جميع الشوارع وسطت الجماهير على بيوت الاغنياء تسلبها وتنهبها .

وفى المساء كانت المدينة قد هدأت كلها تقريبا الا حى الجامع الكبير حيث كان يجتمع مجلس الثوار الذين أقاموا المتاريس فى الشوارع المؤدية له .

وفى منتصف الليل تمركز الجنرال دومارتان على رابية بين القلعة والقبة ، التى تقع على بعد حوالى ٣٠٠ متر من الجامع الاكبر ومعه ٤ مدافع .

كان العرب والفلاحون يسيرون متلهفين لنجدة الثوار فأمر الجنرال لان للجنرال فو بالهجوم على نحو ٤ أو ٥ آلاف فما أن رأوهم حتى فروا بأسرع مما كان متوقعا وغرق منهم عدد كبير فى مياه الفيضان .

وفى صباح اليوم التالى أرســـــل الجنرال دوماس طلائع فرقة من الخيالة لاســـتطلاع الامور فطرد العرب بعيدا عن القبة .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر كان كل شيء هادئا خارج سور المدينة . وعندما تقدم رجال الديوان وكبار المشـــــايخ ورجال الشريعة نحو المتاريس المقامة فى حى المســــجد الاكبر رفض الثوار الســــماح لهم بالمرور واستقبلوهم بطلقات البنادق .

وكان الرد فى الساعة الرابعة باصلائهم نارا حامية من مدفعية القلعة ومدفعية الجنرال دومارتان وفى أقل من عشرين دقيقة من قصــــــف المدافع رفعت الاستحكامات والمتاريس وانفض المتظاهرون من الحى واستولت قواتنا على المسجد وعاد الهدوء التام الى كل المنطقة .

وتقدر خسائر الثوار بحوالى ٢٫٥٠٠ قتيل وخسائر ١٦ جنديا قتلوا و ١١ مصابا فيهم واحد خنقه الثوار فى الشارع و ٢٠ رجلا من مختلف ولاحدات والرتب .

ان الجيش يشعر بخسارته فى فقدان الجنرال دوبوى الذى سبق أن أخطأه الموت فى مفاجآت الموت مائة مرة .

وعندما ذهب ياورنا ســـولكوسكى فى فجر يوم أول بروميير لاستطلاع الحركات التى كانت تبدو خارج المدينة هاجمته بدوره الجماهير فى ضاحية من الضــــواحى ولما

انزلقت ارجل حصانه انهالت عليه الجمـــاهير ولم تلتئم الجراح التى أصابته فى معركة الصالحية فمات .

لقد كان ضابطا ذا مستقبل عظيم » .

اما فى (يوميات) الجبرتى ، ج ٣ ص ٢٥ ــ ٢٧ فنقرأ فى نفس الحادثة :

« (وفى يوم السـبت عاشر جمادى الاول) عملوا الديوان واحضروا قائمة مقررات الاملاك والعقار فجعلوا على الاعلى ثمانية فرانسة والاوسط ستة والادنى ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معاف وأما الوكائل والخانات والحمـــامات والمعاصر والســـيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشــــير على عادتهم والصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخا للاعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الاعلى من الادنى وشرعوا فى الضبط والاحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض اسـتسلم للقضاء فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الامور ولم يتفكر أنه فى قبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسـهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم

الأجد متحزبين وعلى الجهـــاد عازيمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام نصر الله دين الاسلام فذهبوا الى بيت قاضى العســـــكر وتجمعوا وتبعوا ممن على شـــــاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر وفى ذلك الوقت حضر دبوى بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشـــــارع الغورية وعطف على خط الصـــــنادقية وذهب الى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الاخطاط بالخلائق مزحومة فبادروا إليه وضربوه واثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وابطاله وشجعانه فعند ذلك أخذ المســـــلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ومن كل حدب ينسلون ومسكوا الاطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حذاها ولم يتعدوا جهة ســـواها وهدموا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واما الجهات البرانية والنواحى الفوقانية فلم

بفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم احد ولم يسارع وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الاكبر قربهم من مساكن العسكر ولم تزل طائفة المحاربين فى الازقة متترسين فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية وبندقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحـــامين فقاتلوهم حتى أجلوهم عن المناخلية أزالوهم وعند ذلك زاد الحـــال وكثر الرجف والزلزال وخرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضـــية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والســلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام الاروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام وأخذوا الودائع والامانات وســبوا النســاء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الامتعة والموجودات وأكثروا من المعايب ولم يفكروا فى العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين وأما الافرنج فانهم أصــبحوا مســتعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنــابر والبنبات ووقفــوا مســتحضرين ولأمر كبيرهم منتظــرين وكان كبير الفرنسيين أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ومل من المطاولة هذا والرمى متتابع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبمبات على البيوت والحارات

وتقمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجروا عليه المدافع والنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين سوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه نادوا ياسلام من هذه الآلام يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق وتتابع الرمى من القلعة والليمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت فى مرورها حيطان الدور وسقطت فى بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ الى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكرهم من الرمى المتراسل وكفهم كما كف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عاتبهم فى التأثر واتهمهم فى التقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالامان فى المسالك وتسامع الناس بذلك فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب وانقضى النهار وأقبل الليل وغلب على الظن أن القضية لها ذيل واما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمى المتتابع وبالقنابر وبالمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث

ســــاعات وفرغت من عندهم الادوات فعجزوا عن ذلك وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا وبعد هجمة من الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا فى الازقة والشوارع ولا يجدون لهم مانع كأنهم الشياطين أو جند ابليس وهجموا ما وجــــدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين بأن لا دافع لهم ولا كمين . وتراســـلوا ارسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفوقوا بصحنته ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلتهوعاثوا بالاروقة والحارات وكسروا القناديل والســهارات وهشــموا خزائين الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف على الأرض طرحوها بأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوا بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصــبح يوم الثلاثاء فاصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصـــلاة يراهم فيفر راجعا ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحى أفواجا واتخذوا السعى والطواف بها منهاجا واحاطوا بها احاطة الســوار ونهبوا بعض الديار بجحة التفتيش عن النهب وآلة السلاح.والضرب وخرجت سكان تلك الجهة

يهرعون للنجاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كان أشرف البقاع ويشرف الناس فى سكناها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع والفرنساوية لا يمرون بها الا فى النادر ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر فانقلب بهذه الحركة منها موضوع وانخفض على غير القياس المرفوع ثم ترددوا فى الاسواق ووقفوا صفوفا مئينا والوفا فان مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه وربما قتلوه ورفعوا القتلى والمطروحين من الافرنج والمسلمين ووقف جماعة من الفرنساويين ونظفوا مراكز المتاريس وأزالوا ما بها من الاتربة والاحجار المتراكمة ووضعوها فى ناحية لتصير طرق المرور خالية وتحزبت نصارى الشوام وجماعة أيضا من الاروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكوا لكبير الفرنسيس ما لحقهم من الرزية واغتنموا الفرصة وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين وضربوا فيهم المضارب وكأنهم شاركوا الافرنج فى النوائب وما قصدهم المسلمون ونهبوا ماليهم الا لكونهم منسوبين اليهم مع أن المسلمين الذين جاوروهم نهبوهم الذعر أيضا وسلبوهم وكذلك خان الملايات المعلوم الذى عند باب حارة الروم وفيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين فسكت المصاب على غصنه واستعوض الله فى قضيته لانه ان تكلم لا تسمع دعواه ولا يلتفت الى شكواه . وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح واختلس وبث أعوانه فى

الجهات يتجسسون فى الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم وما ينهبه النصارى من ابغاضهم فيحكم فيهم لمراده ويعمل برأيه وقياده ويأخذ منهم الكثير ويركب فى موكبه ويسير وهم موثوقون بين يديه بالحبال ويسحبهم الاعوان بالقهر والنكال فيودعونهم السجونات ويطالبونهم بالنهوبات ويقررونهم بالعقاب والضرب ويسألونهم عن السلاح والآلات والحرب ويدل بعضهم على بعض فيضعون على المدلول عليهم أيضا القبض وكذلك فعل مثل ما فعلوا اللعين الأغا وتجبر فى أفعاله وطغى وكثير من الناس ذبحوهم وفى بحر النيل قذفوهم ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم وأصبح يوم الأربع فركب فيه المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه فى العفو ولاطفوه والتمسوا منه أمانا كافيا وعفوا ينادون به باللغتين شافيا لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين فى اثارة العوام وحرضهم على الخلاف والقيام فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده فى اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم فى الحال وابقوا منهم السبعين أسكنوهم فى

الخطة كالضـــــابطين ليكونوا للأمور كالراصدين وبالاحكام متقيدين ثم انهم فحصوا على المتهمين فى اثارة الفتنـــــة وطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف الصيفى والشيخ اسماعيل البراوى وحبسوهم ببيت البكرى وأما السيد بدر المقدسى فانه تغيب وسافر الى جهة الشـــام وفحصوا عليه فلم يجدوه وتردد المشايخ لتخليص الجماعة المعوقين فغولطوا واتهم أيضا ابراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع له جمعا من الشطار وأعطاهم الاسلحة والمساوق وكان عنده عدة من المماليك المخفيين والرجال المعدودين وقبضوا عليه وحبسوه ببيت الأغا » .

وعلى هذا النحو ، نصل الى شىء هام يلخصه موقف الجبرتى نفسه كاحدى القيادات الدينية المثقفة ، فهو ، كما رأينا ، لم يكن راضيا عن الثورة ، وعدم رضاه يعود الى أسباب كثيرة لعل من أهمها أنه كان محافظا شديد المحافظة ، ومن ثم ، تبرمه بالعنف ، فضلا عن الوعى الذى دفعه ليرى فى الثورة عبثا مادام أصحابها لم يتخذوا العدة لمواجهة عدو مستعد مدجج بأحدث الأسلحة ، غير أن المحافظة كانت العامل الاول فى موقفه .

ويمكن أن نشير بعد ذلك الى أســـباب أخرى منها أسلوب الجماهير غير المنظم متمثلا فى الفوضى الضاربة باطنابها والحركة التلقائية دون ما قيادة أو تنظيم ..

ويبدو عدم رضاه فى لوم القيادات ، أو التمرد لانهم آثروا العاطفة والغوغائية وهم من يسميهم (المعممين) ، وقد كان الأولى بهم فى رأيه أن يتدبروا قبل أن يقدموا على هذه الفعلة الهوجاء التى لم يجنوا من ورائها غير الفشل .

ويترجم عدم رضاه أيضا وصـــــفه الغريب لرجال الثورة ، وهو فى الوقت نفســـــه يترجم موقفه منهم حين يصفهم فيقول (الغوغاء أو الحشرات أو الذعر) ، فعلى الرغم مما يبدو من القسوة فى هذا الرأى ، فانه لا مفر من قبول رأيه فى ضوء عصره ، انه من العبث التمرد على قوات أقوى مما ينتج عنه خســـــائر كثيرة منها مما كان يصحب هذا التمرد غير المنظم من حركة ســـــلب ونهب وتخريب ودمار يصل الى درجة بعيدة .

ونخطو خطوة أخرى لتجاوز مفهوم الجبرتى المتباين الى دلالة ألفاظه ، لنرى ، من ثم ، عمق هذا التباين بين العالمين ، بينما نقرأ فى أوراق الجبرتى (المعممين الجهاد ، حشرات الحسينية وذعر الحارات البرانية ، المسلمون ، الكفار ، الشطار ، ضربوا بالمدافع ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الازهر) فان الدلالة تختلف فى الفاظ صـــــحيفة نابليون حين نقرأ (التجمعات ، قائد كتيبة تركى ، الجماهير العرب والفلاحين ، المتاريس حول المســـجد الاقصى ، المتظاهرون ، خسائر الثوار ٠٠) مما يشير الى اختلاف العالمين الشرقى والغربى اختلافا كبيرا ، فاذا جاوزنا

المعنى الظاهر لوصلنا الى غايات البيان والبديع والمجاز تلك التى تظل السمة الغالبة على أسلوب الجبرتى ، اذ لا نخطأ هذا السجع المتتابع واحتواء تاريخه للتراجم والاخبار فى آن واحد وتسجيله للاحداث فى شكل (يوميات) أى بشكل مباشر واحتوائه على وثائق وعديد من الروايات المدونة بنصوصها كما عرفت فى هذا الزمن سواء بأعجميتها أو عربيتها أو حتى ركاكتها وهذه الخواطر التى تدون كلما عن لصاحبها فضلا عن احتواء الكتاب لبعض النوادر والاشعار والزخارف اللفظية وما الى ذلك مما يشير الى أن منهج الجبرتى فى تسجيل التاريخ انما يعود الى المنهج الاسلامى — لا الغربى — الذى يمتد الى ابن اياس وأحمد شلبى عبد الغنى ثم الاسحاقى وابن ابى السرور البكرى الصديقى ثم عبد الله الشرقى فى عصره .

ويمكن أن نضرب مثلا لهذا التباين فى لفظة (الجمهور) التى ذكرت بمعنى يختلف عن لفظة (جمهور) فى موضع آخر ، فلكل موضع استخدام مختلف ، يقترب أو يبتعد من التأثر بالمدرسة الاسلامية حسب اقترابه أو ابتعاده ، من أحداث عصره والمؤثرات التى أسهمت فى تجديد المعنى، وفى جميع الحالات فان التفسير يرتبط بالعصر .

وقد نسهب أكثر فى درجات التباين بين الاثرين .. ففى حين يلاحظ ان الشرارة التى أوقدت الثورة عند الجبرتى تمثلت فى ضرائب (الاملاك والعقار) ، فان وثائق الفرنسيين

لا تذكر هذا السبب ، وليس معنى هذا أن الضرائب هى السبب المباشر وراء الثورة ، ولكنها ذريعة لهذا الاختلاف بين الجانبين .

وفى هذا يمكن تأكيد أن أسباب الثورة لا تجاوز مفهوم الاختلاف بأية حال ، وهو اختلاف بواعث كثيرة بعضها مادى وبعضها معنوى .

أما المادى فهو يتمثل فى جملة من تعليمات الادارة الفرنسية التى أضطرت اليها والتى كانت جديدة بالنسبة الى شعب مغاير من أمثال القروض والبيوع الاجبارية واوامر الاستيلاء والغرامات وما الى ذلك ، أما المعنوى ، فهو ما تمثل فى تعليمات أخرى كانت تظهر الباعث المادى لكنها تطوى الباعث المعنوى مثل أمر أصحاب الحوانيت باضاءة مصابيح الشوارع طوال الليل أمام الحوانيت ، وأمر نابليون بهدم عدة بيوت لانها عاقت الاستحكامات . والى غير ذلك من البواعث التى اندهش الشعب لغرابتها بالنسبة اليه ، ولم تكن لتستطيع هذه الاوامر او التعليمات المغايرة أن تعمل شيئا فى شعب كان فقهاؤه يدعون الى الثورة (خمس مرات فى اليوم) على رأى كرستوفر هيرولد (بونابرت فى مصر ، ٢٦٢) .

وربما ارتبط بهذا تأرجح موقف الجبرتى أيضا فى أكثر من مرة لغرابة أفعال الفرنسيين المختلفين عن شعب أعزل،

وهو موقف ينتمى ، كما أسلفنا ، الى فكره الذى يفهم العدل على أنه اقامة الشريعة الاسلامية والرفق بالناس خاصة اذا كان الحاكم هذه المرة أجنبيا ، فهو يعلق على موقف القائد الفرنسى — نابليون — بعد أن أرسل المنشور الاول وقال فيه (اننى ما قدمت لكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين) فان الجبرتى يردد مباشرة فى (مظهر التقديس) قائلا (هذه أول كذبة ابتدرها وفرية ابتكرها) (ص ٢ ، ٣) ، كما أن يوميات (العجائب ، ج ٣) زاخرة بضروب ظلم الفرنسيين ، فكما نرى الوصف السابق لاحداث ثورة القاهرة الاولى ، فانه يعلق على أفعال الفرنسيين لاخماد الثورة ، انهم ، أى الفرنسيون ، قد (نالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم) (ج ٣ ، ص ٢٧) ويضيف معددا ما يفعلون من (استمرار القبض على الناس وكبس البيوت بأدنى شبهة) وما الى ذلك حتى لم يسلم من هذا المصير أحد من فئات الشعب .

وعلى أية حال ، فان دراسة الجبرتى فى علاقته بالغرب واستبطان البنى الزمنية أو الدلالات الفكرية يدلان على شقة الخلاف بين هذين العالمين، فى وقت لم يكن المصريون خلال قرون بعيدة الى الوراء قد اختلفوا فى رأيهم بعد عن الصليبيين سواء فى قدراتهم الحربية أو الحضارية ، فحتى اذا ما جاءوا هذه المرة ، بدأ الصراع مغايرا نتيجة لان العالم كان مغايرا .

ومن هنا ، فان (الصدمة) الاولى كانت كافية للسير في العالم الغربي أو في عصره ، لكن بمقومات عالمنا نحن وعصرنا أيضا .

والسؤال يظل هو :

ما هي أهم الدوافع وراء دواعي التدوين والتعبير ؟

فلنحاول الاجابة عنه ..

أن الدافع الاول الذي لا نستطيع التخلص منه قط ، يظل اختلاف الشرق عن الغرب ، وهو اختلاف تغاير .. وكما أسلفنا ، فان تقليدية الجبرتي ، وان كان مغاليا فيها ، لا تحمل بالضرورة تخلفا حضاريا ، كما أن رؤية نابليون ، وان كان طموحا فيها ، تنطوي بالضـــــرورة على هدف حضاري .

ويمكن أن نتابع مع ذلك عددا من التفريعات وراء هذا التغاير ..

لقد كان الجبرتي أثناء الوجود الفرنسي يســـجل في كراساته الخاصة أعمال ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت اليه ، وراح يسجل أيضا ما رآه في الغالب رأى العين في أوراق متناثرة يسميها (طيارات) حتى اذا ما خرج الفرنسيون وكان لابد أن يمضي وقت طويل على هذا عمد أن يبدأ بعد ذلك الى تسجيل تاريخه بغرض تذكير الناس ماحدث والافادة منه . أما نابليون ، فقد اختلف في صحيفته

عن يوميات الجبرتى ، اذ سعى الى طبعها لنشرها بين أفراد جيشه للتعرف على أخبار أوروبا وأخبار البلد التى تواجدوا فيها حتى تحمل هذه الجريدة الاخبار الى الخارج وتحمل أيضا أخبار الخارج الى الداخل لكى يتسنى فهم ما يحدث خارج المستعمرة الجديدة أو فى أطرافها .

لقد راح الجبرتى يدون (يومياته) بينه وبين نفسه .

وراح نابليون يدون الاخبار بينه وبين الآخرين .

كان الجبرتى يهدف الى تسجيل ما يرى .

أما نابليون فكان يهدف الى املاء ، ارادته من خلال تجربة الاستعمار .

ومن هنا ، عاد الجبرتى الى كراساته التى سجل فيها الاحداث حتى خروج الفرنسيين ، أما نابليون ، فقد راح يرسل وقتها أعدادا كبيرة منها الى «كليبر» فى الاسكندرية ليطبع منها ما يستطيع من الكميات ليعيد توزيعها على رجاله .

كان الجبرتى مؤرخا وطنيا ينتمى الى الشرق ، أما نابليون ، فقد كان قائدا حالما ينتمى الى الغرب ، غرب القرن الثامن عشر بأحلامه الصاعدة .

وهو ما يفسر احترام نابليون رجال الدين المصريين فى الظاهر ، بينما فى (بريد) الحملة راح يسجل ما يعن له لسد تبرير سياسته والتكريس لها .

سبب آخر يحدد دوافع الكتابة عند الاثنين ، فالجبرتى لم يكن ليسعى لغير تسجيل « اليوميات » ، أما نابليون ، فقد كانت أحلامه (الزاهية) التى استولت عليه دافعا له ليغلو فى أخباره غلوا كثيرا ، وهو نابليون الذى قال أثناء فترة نفيه حين راح يسترجع فترة وجوده الاول فى مصر (فى مصر ، وجدت نفسى وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة . كانت الاحلام تملأ رأسى .. ورأيتنى أؤسس دينا ، وأزحف على آسيا وأنا امتطى فيلا وعلى رأسى عمامة وفى يدى القرآن الجديد الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجياتى .. وكنت سأجمع فى مشروعاتى كل خبرات العالمين ، وأسخر لمنفعتى مسرح التاريخ كله .. لقد كانت الفترة التى قضيتها فى مصر أجمل فترات حياتى لانها كانت أحفلهـا بالاحلام) بونابرت فى مصر لكرستوفر هيرولد ص ٩ ف ١٠) .

وهو سياق لم تحققه الايام خاصة فيما يتصل بالعقيدة التى كانت راسخة رسوخا يفوق بونابرته وكل محاولاته ، ولم تتعد مشروعاته فى هذا الشأن الامانى .

أما الجبرتى ، فان الذى راح يسجل (يومياته) ليس أحلامه الخاصة ، وانما كان صوت مجتمع كامل ، ذلك ، لانه لا يمكن اعتبار هذه (اليوميات) كتابات فـردية أو فضفاضة بغرض ازجاء الوقت أو التكريس لهدف ذاتى بأية حال . فالمعروف أن النتاج الفكرى أو التاريخى للمؤرخين

أعمال فردية فى وقت تظل فيه هناك علاقة أكيدة قائمة بين الفرد والجماعة .

ومن هنا ، يمكن اعتبار (العجائب) أكثر صدقا وعفوية من (البريد) ، أو على الأقل أكثر صدقا فى التعبير عن روح الجماعة أكثر من غيره .

وهذا يصل بنا الى دافع آخر .. فالمنهجية التى كتب بها الجبرتى (يوميانه) انما كانت ترتدى ، ضمن ما ترتدى، زى المؤرخين السابقين عليه فى العصر العثمانى ، يبدأ تاريخه بمقدمة ثم يلم الماحة سريعة بتاريخ مصر — على عادة مؤرخى هذه الحقبة — حتى العصر العثمانى ، ثم يتدرج منه الى أواخر المائة الحادية عشرة ، وان يكن تاريخه الفعلى يبدأ عام ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م الى غير ذلك حتى يصل الى الحملة الفرنسية فيقسم كتابه الى أجزاء ويخصص الجزء الثالث منه الى الحملة حتى ينتهى من تدوين هذا الجزء الثالث عام ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م .

أما نابليون ، فان اختلاف المنهج والقصد حتم عليه أن يجاوز المنطق التاريخى فى اثبات الحوادث وتسجيلها ، بل وراح يجنح الى المبالغة ، كما هو الحال فى مناسبة مثل (وفاء النيل) ، ففى حين يلاحظ لهفة نابليون — القائد — فى تأكيد حماسة الشعب بما يعادل لهفته فى تحقيق أحلامه لاستتباب الأمر له بمصر ، فراح يذكر فى صحيفته أنه حين

عاد الى الازبكية بعد هذا الاحتفال فقد تبعه جمهور ضخم منشد أناشيد المديح فى وقت يذكر فيه الجبرتى ــ المؤرخ ــ ان أهل البلد (لم يخرج منهم أحد تلك الليلة) (ج ٣ العجائب ص ١٤ ــ ١٥) .

لقد كانت الدوافع التى كمنت وراء الاختلاف بين نظرة الجبرتى ونظرة سلفه ، أن الاول جهد ليسجل التاريخ من وجهة نظر مؤرخ وشاهد عيان مسلم أثناء اغارة الفرنسيين على بلاده فى وقت شغل فيه بونابرت كل الشغل بتحويل المثل الأعلى للحرية والمساواة وما الى ذلك من شعارات الثورة الفرنسية قبل ذلك بسنوات قلائل الى السبيل الذى تستلزمه شهوته للفوز بالقوة والسلطان .

مصادر ومراجع القسم الأول :

ـــ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، عبد الرحمن الجبرتى ، أربعة أجزاء ، طبعة بولاق ، بدون تاريخ .

ـــ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، طبعة لجنة البيان العربى ، مجلد واحد ، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقى ، القاهرة ٦٩ .

ـــ أخبار أهل القرن الثاث عشر (مخطوطة) دار الكتب المصرية تحت (طلعت ، أ ٢١٤٨) .

ـــ بونابرت فى مصر ، كرستوفر هيرولد ، ترجمة فؤاد اندراوس ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ٦٧ ص ٢٥٦ .

ـــ نظرية البنائية ، د . صلاح فضل ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ١٩٨٠ .

ـــ عصر البنائية من ليفى ستراوس الى فوكو . اديث كيرزويل ، ترجمة د . جابر عصفور ، سلسلة (آفاق) عن دار آفاق عربية ، ١٩٨٥ ، بغداد .

ــ تاريخ الفكر المصرى الحديث ، د . لويس عوض ، دار الهلال ، القاهرة ط ٣ بدون تاريخ ، جزءان .

ــ بحوث ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٦/٢٣ ابويل ٧٤ بمقر الجمعية بالقاهرة .

ــ العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية ، د . عزت قرنى ، عالم المعرفة ٣٠ ، يونيو ١٩٨٠ ، الكويت .

ــ التداخل الحضارى ، لسان حال الرابطة الدولية لدراسات التداخل الحضارى ، الصادر عن بروكماير ، بوخوم ١٩٨٠ .

Courier de L'Egypte ــ موجودة بدار الكتب المصرية تحت أرقام : N. 1.3.6.11.14.

— A.E. Crouchley, The Economic development of Modern Egypt (London, 1938).

— Brecht in Agypten, Dr· Magdi Youssef. Studienverlaq, Dr· J. Brockmeyer, Bacheme 1970.

— Jones, M· Dr. The First French and Al-Jabarti H.D.

القســـم الثانى

الجبرتى ومقتل كليبر

لايمكن التعرف على خصائص عصر الجبرتى دون تفهم العصر الذى سبقه ، علي أساس ان مجموعة الخصائص والتغييرات التى حدثت فى هذا العصر — السابق — هى التى أنتجت بنية زمنية تالية(*) .

وعبورا فوق بنى زمنية كثيرة ، نستطيع أن نتخيل خطا متصلا يبدأ بالرمز (أ) قبل مجىء الحملة الفرنسية ، ويمتد الى (ج) فـــترة مجىء الوالى محمد على ، مارا بالفترة الحاسمة من تاريخنا فترة مجىء بونابرت ورحيله الى فرنسا تاركا كليبر بدلا منه .

وهنا ، بالضبط ، نتوقف عند الرمز الوسيط ، لنتعرف، خلال الرؤية الحضـــارية المقارنة ، علاقة عبد الرحمن الجبرتى ، العالم السلفى ، ابن القرن الثامن عشر ، بكليبر القائد الفرنسى المتغطرس ، ابن الثورة الفرنسية ومبادئها وشخصيتها الحقيقية فى هذه الفترة المبكرة ..

(*) انظر التمهيد في بداية الكتاب .

ونصطدم بأسئلة كثيرة طرحنا بعضها آنفا قبل أن نفرغ الى موضوعنا :

— الى أى مدى كان يمكن أن تتطور الطبقة الجديدة من العلماء والأعيان لو لم تأت الحملة الفرنسية الى مصر ؟

— والى أى مدى كان التغيير الجديد دافعا للجبرتى ، أهم رموز هذه الفترة ، لتجاوز الانبهار الى ما وراءه ؟

— وكيف حددت ممارسات الحملة الارهاصات الاولى لصورة الغرب فى عيون الشرق ؟

ويكفينا بيتر جران فى مقدمته للطبعة العــربية لكتابه (الجذور الاسلامية للرأسمالية ، مصر ١٧٦٠ — ١٨٤٠) والذى ترجم أخيرا (الفكر ١٩٩٣) . يكفينا الرد على مثل هذه التساؤلات ، فيقول : « لقد أضر الهجوم الفرنسى على مصـــــر بالطبقات الوســـطى ، وبالثقافة العقلانية التى كانت تفرزها . ولاشك أن التأثير الفرنسى عمل على تعزيز قرار الحكــــام المصريين اللاحقين كى يتحالفوا مع الاجانب ، وفى الحدود التى يريدون فيها قتل الصفوة التقنية المدربة محليا ، وفى ظل الرعاية الاجنبية . ولم تكن أوروبا فى القرن الثامن عشر متقدمة فى الطب أو العلم بشكل مثير .. (و) .. أما الخلافات الادبية ، أو التأثير الأدبى ، فهو أن المنافسة بين الرأسماليات قد أضرت بمصر ، وتركتها بلدا أكثر فأكثر تخلفا وتبعية للخارج ، وكان من نتائج هذا

أن ملاك الاراضى بدأوا ينتجون للسوق الاجنبى باعتباره أكثر ربحية من السوق المحلى » .

وعلى ذلك يبرهن جران على وهم الاعتقاد السائد من أن مصر فى القرن الثامن عشر ــ قبل مجىء الفرنسيين ــ كانت فى حالة انحطاط ثقافى وان أوروبا هى التى ملأت البلاد بالعلم والتكنولوجيا .

الأكثر من هذا ، ان جران لا يلبث فى الفصل الثالث أن يكون أكثر تحديدا ، حين يقرر بصراحة ، انه ظهرت فى مصر بين عامى ١٧٦٠ ــ ١٧٩٠ صحوة ثقافية جديرة بالملاحظة ، احتلت مكانتها ، وان كانت لم تدرس على نطاق واسع ، فسلسلة الموضوعات وعدد المشاركين فيها ، ويقظة الوعى النقدى فى ميدان العلم ، والذى اختير بطريقة محددة ، كل ذلك يتطلب بالضرورة تفسيرا جديدا لتطور الثقافة الحديثة فى مصر . ولاشك ان الازدهار التجارى فى مصر فى القرن الثامن عشر أطلق حركة جديدة تتسم بالحيوية فى الحياة الدينية ، والتى بدورها أثمرت ثقافة وليدة ..

والحاصل ان العلماء فى مصر زمن مجىء الحملة ، كانوا عند مستوى ثقافى معين ، سمح لهم بعدم السقوط فى بؤرة الاعجاب ، وانما كان الانبهار فقط لغرابة القادمين وتطور آلاتهم وطرق مناهجهم ، وهو ما يفسر كيف ان العلماء لم يستطيعوا اتخاذ موقف حاد ــ خاصة كبار العلماء ــ ضد الحملة ، كما لم تكن لديهم القدرة على الفصل بين مجالات

التعاون الثقافى والحضارى ومجالات التعاون السياسى ، بل ان مثل هذا الفصل كان مستحيلا فى ظروف كظروف مصر « وطبيعة الحملة التى قادها نابليون الى مصر ، وهى حملة عسكرية علمية . أما الجماهير التى كانت على حظ ضئيل من العلم والوعى الثقافى ، فكانت رافضة للوجود الفرنسى» من حيث هو وجود استعمارى وعقيدى فى الاساس الاول ..

وهذا كله — اذن — يفسر (حالة) العلماء ابان مجىء الحملة الفرنسية الى مصر .

ولا يمكن فهم هذه (الحالة) دون ان نمر بمرحلتين :

— مرحلة التقييم العام للبنية الكلية .

— مرحلة فهم الوحدة الداخلية بتلمس (النموذج) والمقارنة ..

* * *

لم تخل مرحلة التقييم العام للحملة الفرنسية — خاصة بعد مقتل كليبر — من انبهار كان يتأرجح دائما حتى كان يصل فى بعض الاحيان الى التعاطف مع المحتل ، وهو تعاطف لا يمكن ان نرجعه لغفلة العلماء ، وانما الى خداعهم من قبل القوى الاخرى ، على ان المهم هنا ، ان هذا الانبهار فى صعوده الى اقصى طرف لم يكن ليصل — كما هو شائع فى أغلب كتب التاريخ الحديث — الى الاعجاب .

الانبهـــــار والاعجـــاب

ورغم بداهة تعريف لفظة (الانبهار) ، فان اعـــادة تحديد الالفاظ والتفرقة بين لفظ وآخر ، يظل مدخلنا الحقيقى لفهم المعانى والدلالات .

يعرف المعجم الوسيط الانبهار بالادهاش ، وبهر الشىء فلانا ، أى ، أدهشه وحيره ، فتضاف الى الدهشة الحيرة .. أما الاعجاب فقد عرف بالميل ، وأعجب الشىء فلانا ، أى ، عجب منه وسر به ، فهو معجب ، ويأتى فى تعريف الاعجاب كذلك جملة من المعانى ، منها ، الاعجاب والسرور فى آن واحد ، فالاعجاب يظل الى الميل أقرب منه الى الحيرة والاعجاب يستحوذ على صاحبه تماما حتى لا يستطيع الفرار منه ، فيسقط أسيرا له ، اما أقصى تأثير للانبهار ، فهو أن (يغلب) صاحبه « بتعريف المعجم الوسيط » . بمعنى أن يكون مغلوبا على أمره .

وهو ما يعود بنا الى ما سلف من أن خطورة الانبهار أن يسقط بصاحبه تحت تأثير المبهر به وقتيا ، أما الاعجاب فهو سقوط أبدى لا قيام منه بعدها ..

وســـــوف نجد الجبرتى ، وهو نموذج لعلماء الدين الكبار ، فان نظرته لم تخرج فى كثير عن الانبهار ، غير ان ذلك قليلا ما كان يخدعه ، فيمنح أحكاما غير صائبه ، وهو

ما يعود الى ضعف الوعى السياسى لديه و (حجاب) المعاصرة فى بعض الاحيان ، لكنه ، بوجه عام كان واقفا عند حدود الانبهار فقط .

وهذا الموقف يعود الى نشأة الجبرتى نفسه قبل مجىء الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . درس الجبرتى كأقرانه — كالشيخ محمد الصبان — الحديث وأطلع على المتون الاساسية لعدد من الاساتذة المعاصرين له ، كما برز — كذلك فى علوم اللغة ، وترجمته لسيرته تشير الى أنه درس العلم مثم علم الهيئة والميقات وعلم الفلك والهندسة ، وعلم قياس الوقت ، كما قرأ متون الاعمال المشهورة فى أواخر العصر الوسيط، أيضا كان من أساتذته : الزبيدى الموسوعى الشهير ، ويذكر جران أن الجبرتى كان من طلبة الشيخ الصبان ، لذا كان يشبهه الى حد كبير ، اذ نال شهادة الطريقة الشاذلية التى تؤكد على تقدمه الروحى ، كما قرر ان يقوم بجولة فى ربوع مصر فيلم بالاضرحة والمقابر فى وطنه ، أضف الى ذلك ان والد الجبرتى نفسه — حسن الجبرتى — كان ممن يشهد لهم بالعلم بالمعنى الحديث . وهو ما يشير الى أن مثل هذا النمط من التعليم كان لابد أن يفسر كثيرا من الظواهر ذات الاهمية الفلسفية والادبية كما يهيىء صاحبه لتفهم الاحداث وان انبهر بها . وقد بلغ الجبرتى من العلم الى درجة وصف البعض تاريخه بأنه العمل الممتاز والمتدرج فى حركة الاصلاح « الصوفى خلال

القرن الثامن عشر الميلادى » . واذا تعمقنا فى التحليل ، وتعاطفنا مع هذا العمل ، سنرى أنه يفوق ، حتى ، كتاب أستاذه (الزبيدى) .

المهم فى ذلك كله أن الجبرتى كان نموذجا لعالم الدين الواعى ، الدارس دينيا وعلميا ، والذى كان يتمتع بمكانة فكرية واجتماعية كبيرة ، ومع هذا ، فان رصد هذه الفترة، ترينا انه سقط صريع الانبهار الذى أوصله الى درجة من التخبط ، فى الفترة التى رحل فيها نابليون عن مصر ، واغتال سليمان الحلبى الجنرال كليبر .

تحدثنا مصادر هذه الفترة — وما أكثرها — ان كليبر كان أكثر قسوة من بونابرت ، وأكثر تجهما ، وأقل (تباسطا) مع العلماء أو الجلساء ، وتترجم أوصاف المصريين لزعماء الحملة وعيهم فى هذا الصدد ، اذ بينما أطلقوا على قائد فرنسى (بونابرت الكبير) أطلقوا على الآخر (كليبر الطويل) وهو ما عاينه الجبرتى بنفسه ، حين ذهب مع العلماء لمقابلة كليبر لاول مرة بعد سفر سلفه .

وقد حال موقف الجبرتى من التنبه أكثر لطبيعة حكم كليبر الذى ازداد قسوة مع الوقت ؛ فكليبر لم يكن ليحفل بالاسلام كثيرا ، ولم تكن منشوراته تتضمن « الدعاية الاسلامية » الا نادرا ، كما كان أكثر قسوة على المصريين من سلفه ، خاصة فى ثوراتهم التى اشتعلت بعنف فى

عهده ، كما زاد هزيمته للعثمانيين والانجليز من عنفه ضد أهل البلاد ، خاصة العلماء ، فضلا عن الضرائب الباهظة .

وقد زاد موقف الفرنسيين عنفا عقب قتل كليبر ، اذ تذكر المصادر — على عكس ما يتردد عن عدالة الفرنسيين ورباطة جأشهم حينئذ — ان الجنود الفرنسيين انتقموا من الناس العاديين ، فراحوا يقتلون كل ما يقابلونه من الرجال والاطفال ، كذلك أمر القائد مينو بفرض غرامة جديدة على الناس قدرها أربعة ملايين فرنك ، ثم مليونا آخر ، وأراد البعض الهجرة من العاصمة ، فمنعهم الفرنسيون ، وامعنوا فى الاساءة للمصريين فترات طويلة . فضلا عن المحاكمة الصورية — فى تقديرنا — لقاتل كليبر .

لقد كان على الجبرتى ان يكون أكثر وعيا مع أصحاب هذه الحضارة العنيفة فى تعاملهم اليومى مع الناس ، فلم يكن العنف طارئا لديهم خاصة عقب قتل قائدهم — كليبر — وانما استمر لفترة طويلة ، واتخذ أشكالا شتى .

ويشير تقييم موقف الجبرتى بوجه عام فى كتابيه (عجائب الآثار — مظهر التقديس ، وخاصة ، انه كتبهما بالشكل النهائى بعد خروج الفرنسبين من مصر) ، الى أن موقفه من الفرنسيين لم يتعد الانبهار بهم ، وفى أحسن الحالات : التعاطف ، وقد بالغ فى نقد الفرنسيين فى كتابه الآخر (مظهر التقديس) ، اذ كان يكتب أصلا للوزير

التركى أو الاتراك وفى عصرهم ، غير ان موقفه بالانبهار فى (العجائب) لا تشوبه شائبة ، ويلاحظ البعض انه بينما تذكر محاكمة سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر فى (مظهر التقديس) دون اطالة ، فانها مليئة بالاحساس بالعدل عند الفرنسيين فى ست عشرة صفحة فى (العجائب) .

ونحن لا نذهب مع Crabbs حين يرى ان موقف الجبرتى من محاكمة سليمان الحلبى ، كان موقف المعجب ، ويعلل ذلك بأن طبيعة المحاكمة التى عقدت ، منحت هذا الحس ، ذلك لان موقف الجبرتى من عدالة (المحاكمة) هنا لم تتعد درجة الانبهار أو الدهشة لهذا المظهر الذى حرص عليه الفرنسيون ، فكانت دهشته بالعدالة التى أعلنت ، اكثر من الاعجاب الذى اثمر حسبما يردد هذا المؤرخ .

ويترتب على ذلك الخطأ الآخر الذى وقع فيه أيضا من أن الجبرتى ظل منعزلا عن الفرنسيين خلال أغلب سنوات الاحتلال الثلاث ، وانتقد العلماء الذين تدنوا وخدموا سادتهم الجدد .. (و) .. ومع اغتيال كليبر شرع الجبرتى يغير أفكاره ، فلم يكن تغيير الافكار هنا من قبيل الاعجاب لدرجة (التعاون) مع المحتل ــ خاصة انه كان عضوا فى أول ديوان بعد مقتل كليبر ــ وانما تمشيا مع عدالة الفرنسيين المعلنة ، وفى حين اننا لانستطيع أن نزيد موقف الجبرتى عن الانبهار والتعاطف ، فنحن لا نعفيه من

الاعجاب ــ وان بدا حذرا ــ فى بعض الاحيان ، خاصة ، وقد كتب كلا من « العجائب » و « خروج الفرنسيس من مصر » فى زمن عادت فيه همجبة المماليك والعثمانيين .

وباختصار ، لم تكن لفظة (العدل) التى رددها الجبرتى عقب محاكمة كليبر غير منطوق ، قصد به المقارنة بين العدل عند الفرنسيين ، وأن يكن صوريا ، والعدل عند غيرهم ، وان مارس ظلما بينا واضطرابا فادحا .. وهى درجة من درجات النضج لديه ظهرت أكثر فيما بعد حين افتقدت مصر غى فترة الفوضى (١٨٠١ ــ ١٨٠٥) أية درجة من درجات العدل والأمان .

ولكرابس هنا وجهة نظر جديرة بالتسجيل فى موقف الجبرتى المتحول أكثر الى جانب الفرنسيين خاصة بعد مقتل كليبر ، فهو يرى أن « عجائب الآثار » كانت نتاج ادراكه المؤخر وانعكاسه ، أى ، أنه فى (العجائب) كان أكثر نضــــجا فى مقارنة حكم الفرنسيين بمن جاء بعدهم بعدما أجلوا عن مصر .

غير ان انبهاره أو تعاطفه أو ــ حتى ــ اعجابه الحذر ، أكد على حقيقة هامة ، هى ، ان الحكم على قاتل كليبر (سليمان الحلبى) كان يعوزه الكثير من الوعى ، خاصة

أن (المحاكمة) الصورية لم تعقد الا بقصد واحد مسبق ، وهو ، الحكم البشع بالتعذيب والوضع المزر على(الخازوق) قبل ان تستهدف العدل بحق .

وهو ما نتمهل عنده ، أكثر ..

* * *

صـــــور من المقـــارنة

سوف ننتقل الآن من التحليل الرأسى الى التحليـــــل الافقى فى محاولة لفهم – أكثر – موقف المؤرخ المصرى من قوى الاحتلال فى تلك الفترة سواء أثناء اغتيال كليبر أو بعده .

وترينا صور المقارنة .. كيف لم يستطع الجبرتى – على ما فيه من فطنة وخبرة – أن يمثل الوعى الذاتى أو الجمعى أو يفهم روح العصر فهما تاما ، سالكين فى ذلك مسلكا يغاير الفصل السابق فى محاولة فهم دلالة الاختلاف الزمنى أو التباين اللغوى أو تغاير التقاليد والعادات وما الى ذلك .

سوف يكون نهجنا الآن الفهم الموضـــوعى من خلال مقارنة عدد من الوثائق الفرنسية والعربية ..

وسوف نختار من النصوص والوثائق ما له صلةمباشرة بالمقارنة الحضارية بشكل مباشر ، تاركين صـــورة من الوثائق في (الملحق) المرفق بهذه الدراسة .

فلنتمهل الآن أكثر عند النماذج ودلالاتها :

(أ) حقيقة سليمان الحلبى .

(ب) وحشية القتل والتعذيب .

(جـ) خدعة المحاكمة .

(د) عدم فهم الواقع .

* * *

(أ) حقيقة سليمان الحلبى :

من تقرير الجنرال مينو :

« .. ان هذا الشاب المتحمس أظهر وقت القصاص وخلال تعذيبه شجاعة ورباطة جأش يدلان على ارتياح ضميره لأحسن عمل يستحق الثناء والتمجيد والثقة بأنه سينال حسن الجزاء الذى ينتظر الشهداء » .

من تقرير الجنرال بارون ديفرنوا :

« .. كان سليمان رابط الجأش يبدو عليه الرضا بالحزن الذى ظهر على القوات الفرنسية » .

.. (و) ..

« طلب ماء .. فشرب حتى آخر نقطة فيه .. ان سليمان راح يشرب الماء بكثرة عسى أن يموت مختنقا

تخفيفا للآلام التى يشربها .. وكان هذا المشهد يدفعه الى الابتسام بطريقة ساخرة ، الأمر الذى كان يضـــاعف غيظنا » .

من مستندات كتاب (لغة الشـــعب) الذى أصـــدره الفرنسيون :

« جاوب سليمان انه .. حضر حتى يغازى فى الكفرة ، وكان يبدى الارتياح الشديد » .

ومن كوربيه دى ليجبيت ــ الطبعة الاصلية :

رقم ٧١ فى ٢٧ بريال ــ السنة الثامنة للجمهورية :

« القيادة العامة بالقاهرة فى ٢٦ بريريال لسنة ٨ من الجنرال عبد . ج مينو القائد العـــام لجيش الشرق بالنيابة الى الجيش .

لقد وقع اعتداء أثيم عليكم ، وأغتيل من بينكم جنرال كنتم تحبونه وتحترمونه . اقترف ذلك عدو (يقصد العثمانيين بعد هزيمتهم) لا يستحق الا احتقار ومقت العالم أجمع . ولما لم يتمكن عدوكم من قهركم تحت قيادة كليبر الشجاع ؛ لجأ الى حيلة دنيئة وأرسل اليه خلســـــة أحد المجرمين لاغتياله » .

وجاء في يوميـــات الجبرتى (عجائب الآثار ..) ج ٣ ، ص ١٢٢(*)

« قبل أن يورد المنشورات التى طبعها الفرنسيون ، ذاكرين فيها ما حدث ، راح يعلق قائلا عن حقيقة سليمان الحلبى فى مفهومه :

« وقد تجارى على كبيرهم ويعســــوبهم فحل آفاقى أهوج » .

❋ ❋ ❋

وتنتهى الروايات التى كتبت ابان اغتيال كليبر واعدام سليمان الحلبى ورفاقه ، وتتركنا حائرين .

ان المصادر الفرنسية تشير فى أغلبها — عدا الجريدة الرسمية — أن القاتل وراءه عزم نبيل أو — على الأقل — عقيدة قوية دفعت به الى ذلك ، فالجنرال مينو (الذى سيصبح خليفة لكليبر) يؤكد أن سليمان يبدو عليه الرضا للحالة التى أنتهى اليها قائد الفرنسيين ، ومن ثم ، الارتياح للحزن الذى خلفته الجريمة لدى القوات الفرنسية ، وآخر

(*) عجائب الآثار ، السابق ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، وهو يبدأ حديثه عن قضية اغتيال كليبر فى (سنة خمس عشرة ومائتين والف ، فى يوم السبت) متعجبا مما يحدث مسميا أياه (نادرة عجيبة) مما يوحى بأن ما سوف يحدث من قتل كليبر غير مبرر قط .

يؤكد ان سليمان جاء ليجاهد فى سبيل ملته ، وتبدى كثير من الروايات ان شاهدى عيان من الجنود الفرنسيين رغم غضبهم الا أنهم ــ فيما يبدو ــ كانوا متفهمين لموقف سليمان الحلبى ، ومع ذلك ، فان الجبرتى يصـــــف قاتل قائد المستعمرين بانه (آفاقى أهوج) وهو وصف يدل على ان الشيخ المؤرخ لم يكن ــ رغم وعيه ــ متفهما للرأى العام ، ولا ــ حتى ــ متفهما لطبيعة الهدف الذى جاء من أجله سليمان الحلبى .

لم يكن ليهتم الجبرتى بهذا القاتل (عند الفرنسيسيين)، او الغازى والمجاهد (عند المسلمين) ومن ثم ، فان فعلته لم تزد عنده على فعلة آفاق لا يعرف ماذا يفعل ، فيقف جنبا الى جنب مع المدعى العمومى الفرنسى حين طالب بأقصى القصاص للمتهم ووصف فكره (بالهلاوس)(*) .

لقد كان موقف الجبرتى من الفرنسيين حتى ذلك الوقت يشـوبه الغموض ـ كما يلاحظ لويس عوض ـ لكنــه ، فيما يبدو ، كان أقرب الى موقف الانبهار بحضارة الفرنسيين الوافدة، ومن ثم، فان موقفهحينئذ كان يدل «على أنه لم يكن

(*) المستندات الخاصة التى صدرت في مصر عقب مقتل كليبر ، وقد طبعت فى كتاب بثلاث لغات ، العربية منها بعنوان (لغة الشعب) وكلها بعنوان (مجمع التحريرات المتعلقة الى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل صارى عسكر العام كليبر) وقد نشر بعضها وعلق عليها فيما بعد د. أحمد حسين الصاوى في جريدة (اخبار الادب) من تاريخ ٢٠ فبراير ١٩٩٤ .

له موقف معين معاد للحكام الفرنسيين أكثر من سواه من العلماء سواء فى الفكر أو الحياة . ومن ثم ، فان موقفه بالاقتراب من العهد الجديد وآلياته كانت تبعد به عن تفهم أى موقف دينى أو اجتماعى يمكن أن يفسر به موقف سليمان الحلبى ، فراح يتهيأ للعب دور فى الديوان الجديد الذى سيشكل بعد رحيل كليبر — وقد كان هو بالفعل أحـــــد أعضائه — وراح يلعب دورا فى تسجيل الاحداث لافهمها كمؤرخ تحليلى « ليس بروح الوطنى الملتهب الرافض لكل ما حوله من أفكار وأفعال » .

فى هذه الحالة ، كان من المستحيل على الجبرتى أن يتفهم دوافع سليمان الحلبى ، ويلمح جاك كرابس بهذا حين يقول : « وفيما يتعلق بموقف الجبرتى ، فان السيرة الذاتية لسليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر سوف لا تكون ذات فائدة تذكر للمؤرخ ما لم تكشف هذه السيرة عن شىء عن الموقف العام للمجتمع المصرى نحو الاحتلال الفرنسى » .

المفارقة هنا ، ان الجبرتى ، حرص فى تاريخه على أن يكون قريبا ، فى كثير من الحالات ، من التفاصيل ، لكنه لم يستخدمها لفهم دوافع الحلبى ، ومن ثم ، فان هذا يطرح تساؤلات كثيرة على المؤرخ المعاصر :

— هل كان الجبرتى يتهيأ — بالفعل — ليلعب دورا ايجابيا مع الفرنسيين بعد مقتل كليبر ؟

ـــ وهل كان تحول خليفته ـــ مينو ـــ الى الاسلام توطئة لهدم حاجز المعارضة ، وقد كان ذلك مهيأ له منذ فترة مبكرة ، وهو ما رأيناه فى هجومه على الزعر والحرافيش الذين كانوا قد قاموا بالثورة ضد الفرنسيين ؟

لنترك الواقع السياسى والدينى لنحاول تفسير موقف الجبرتى من سليمان الحلبى من الجانب الاجتماعى ..

تشير مصادر هذه الفترة الى ان العلماء الكبار كانوا اكثر حظوة عند الفرنسيين من غيرهم من علماء الصف الثانى أو الثالث حتى اننا نجد فى مراسلات نابليون ان آخر وصية تركها لكليبر قبل رحيله الى فرنسا جاءت على هذا النحو «ان من يكسب ثقة كبار المشايخ فى القاهرة يكسب ثقة الشعب المصر » ، كما أن منشورات نابليون ـــ فى أكثرها ـــ كانت لهؤلاء الشيوخ الكبار سواء باشراكهم فى الديوان أو باتخاذهم مستشارين ـــ فى الظاهر له ـــ ، أضف الى هذا انه حرص على أن تظل مكانتهم الاجتماعية وأملاكهم الكثيرة بعيدا عن المساس أو الخطر ..

فاذا تذكرنا ان الجبرتى كان أحد هؤلاء العلماء الكبار لتفهمنا هذا التناقض الذى كان واقعا اجتماعيا بينه وبين رجال الدين أو المشايخ من ذوى الاملاك الضعيفة أو المعدمين أو ممن كانوا يعيشون بالجراية والمبيت فى الأزهر، وقد كان سليمان الحلبى احد هؤلاء الأخيرين ، اذ ظل يدرس

فى الازهر لمدة ثلاث سنوات وهو رقيق الحال لايكاد يملك قوت يومه الا من خلال الازهر ، وحتى بعد أن ترك الازهر وعاد الى بلده فى بر الشام ، كان لا يأكل الا مما تعلمه من الأزهر ، اذ عمل (كاتبا) لسمعته وتكوينه الأزهرى .

فى أثناء محاكمة سليمان الحلبى ، نعثر على عديد من المبررات التى يحاول ان يقدمها للمحكمة ، وهى فى حقيقتها مبررات اجتماعية ، وان لم تخل من دافع عقيدى غير أن المبرر الاجتماعى هنا يمثل العامل الأول وراء تحرك الحلبى .

بيد أننا لا ننفى الجانب الدينى ، اذ كان أول ما قاله لهيئة المحكمة فى الساعات الاولى انه جاء ليغازى (يجاهد) فى سبيل الله ، غير أن الجهاد لا يكتفى بدلالته فى مجتمع كان الافراد ينقسمون فيه ، بالنسبة الى العلماء ، الى علماء من الطبقة الاولى — كما أشرنا — وعلماء أقل فى الاتصالات الاجتماعية ، والدخل المادى ، وقد كان سليمان الحلبى من هذه الطبقة الفقيرة التى تصدت للاحتلال بالثورة أكثر من مرة ، وابداء الغضب مرات .

نمضى فى الحوار الى خطوه أبعد ، فنقول ، انه ردد أثناء محاكمته — وخلال مصادر عديدة — أنه ذهب الى حاكم القدس ليشكو اليه حاكم حلب لرفع الظلم الذى يوقعه هذا الحاكم على أبيه فى الشام ، تقول الرواية فى أثناء

المحاكمة : « ان سليمان شكا الى أحمد أغا من جملة أغوات الوزير التركى متسلم الأب الذى كان يظلم أباه الذى يسمى الحاج محمد أمين ، بياع سمن وحططوه غرامة زايدة » فوعده الوزير برفع الظلم عن أبيه على أن يذهب لقتل سارى عسكر ، وفى مرة أخرى قال ان العثمانيين أرسلوا الى حلب فى طلب شخص بقتل سارى عسكر وقيل « ان من يقدر على هذه المادة يقدموه فى الوجاقات ويعطوه دراهم ولأجل هذا هو تقدم » .

وكل الروايات تجمـــع على ان العثمــانيين وعدوه بالمساعدة سواء فى رفع الظلم عن أبيه ، أو دفع ما يستحق وما يريد لرفع الحاجة عنه بشرط ان يذهب لقتل سارى عســـكر ..

وهذه الروايات وان كانت لا تقنع الذى يسمعها تماما ، فانها تترك ظلالا تشـــير الى ان الجانب الاجتماعى كان حاضرا وراء محاولة سليمان الدموية ، ومع انه لا يعقل ان لا يذهب ليقتل مقابل أربعين قرشا أعطيت له ، أو يفعل فعلته ــ كما أشار لويس عوض ــ من أجل ذهب الاتراك، فمن المؤكد ان الواقع العربى كان يفرض نفسه على تلك الفئة البائسة من الشباب لما يعانونه هم وأهليهم من الفقر والحاجة ، ومصـــادر العصـــر العثمانى ، قبل مجىء الفرنسيين ، تؤكد ، على أن الظلم والفساد كانا طاغيين ، وقلما نفتح كتابا لأحد أولئك المؤرخين دون أن نجد هذه

الظواهر تشكل القاسم المشترك لأغلبية الشباب المتعلم والأزهرى حينئذ(*) .

وهذا الواقع كان بعيدا دون شك عن الجبرتى ، الذى ظل محتفظا بأملاكه ، متمتعا بمكانة سياسية عالية فى (ديوان) كليبر الجديد ، تشغله القضايا الحضارية وتأمل العصر أكثر من الآخرين ممن لا يجدون وقتا كبيرا للانشغال بقضايا العصر ، أو الاشتغال بمناصب شرفية أو سياسية ..

* * *

(ب) وحشية القتل والتعذيب

من تقرير الجنرال مينو :

« حكم عليه .. بحرق يده اليمنى وقطعها واجلاسه على الخازوق حتى يموت فوقه ..

عاش أربع ساعات فوق الخازوق ولم يتأوه وسط هذه الآلام الشديدة التى يرتعد الانسان لمجرد التفكير فيها » .

(*) وعلى سبيل المثال انظر :

— (ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور) .

— أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات) .

من تقرير الجنرال نيفرانوا :

« وكان من وقت لآخر يطلب من الله ان ينزل عليه رحمته واحترقت يده تماما . ولما كان لا يفتأ يشتم الجلاد ومساعديه والجيش الفرنسى كله ، بطح أرضا وشـــق شرجه وأدخل فيه الخازوق وربطوا ساقيه وفخذيه ويديه وجسمه ، وهنا صرخ صرخة واحدة . ورفع الخازوق وهو ثابت فوقه . . » .

من كورييه دى ليجييت ــ الطبعة الاصلية

رقم ٧١ فى ٢٧ بريريال ــ السنة الثامنة للجمهورية :

نقرأ فى الحكم الذى صدر ان المحكمة الفرنســـية « حكمت على سليمان الحلبى بان يحرق معصم يده ، ثم يغرس فى مؤخرته وتد ليخترق أمعاءه ، ثم يترك وحيدا وبه الوتد الى أن تأتى الغربان والطيور الجـــارحة لتنهش جسده و . . » .

وفى (عجائب الجبرتى) جـ ٣ ص ١٢٢

نقرأ « ثم انهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم فى دعاوى القصاص وحكموا بقتل الثلاثة مع القاتل . . (و) . . وانقضت الحكومة على ذلك . . (و) . . رتبوا محاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاســـتفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم . . »

والغريب حقا فى مقارنة الروايات العربية بالفرنسية لا نلحظ أى غضب أو تحفظ لدى المؤرخ العربى من طريقة القصاص ، فى وقت نلحظه فى الطرف الآخر ، الجانى ، ان الروايات الفرنسية ـ عدا الرسـمية منها ـ تبدى وصفا محزنا ، اما الأوراق الرسمية فى الجريدة الفرنسية فتبدى أحكاما أقل تعبيرا وأكثر تحفظا ، فى حين لانسمع من الجبرتى الا كلاما عن المحكمة والمحاكمة والقصاص .

ان الجانى يبرر لضحيته عما جناه ، وفى تبريره يصطدم بشجاعة سليمان العربى ، فلا يملك الا الاعجاب بها ، بل ان الجنود الفرنسيين أنفسهم يشفقون عليه ، وتشـير مصادر هذه الفترة ان أحدهم ساعده على شرب جرعة ماء كان يلح وهو على الخازوق فى طلبها .

ان تاريخ الجبرتى يشى بما يشبه الاقتناع بالعدل ، حين يحكم على ما حكم به الفرنسيون ، وهو عدل يقيس به الواقع الظالم ، وهو قياس خاطىء ، فهو يقارن عدل الفرنسيين بهذه الموتة المبشعة « بأفعال العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، ولا يمكن هنا الاقتناع بوجاهة مثل هذا الرأى .. » .

ان المؤرخ لا يقيس ظلما بظلم ، انما يقيس الظلم بنموذج العدل الذى كثيرا ما يكون فى الاديان أو فى ضمير البشر ، ان احضار سليمان (وتكرار سؤاله) القصد منه عقد محاكمة صورية للانتقام منه وليس القصاص العادل .

والملاحظة التى يجب ألا نغفلها هنا ان الجبرتى بعد ان يثبت لتنفيذ الحكم يبدو كمن يكتب واجبا أو يقر بأمر واقع ، ثم يشغل بالمنشورات التى (لازم ينطبعوا) — كما يأمروا ويتعلقوا فى المحلات — دون أن تتحرك فيه شعرة أمام هذا الافتاء الشنيع الذى صــدر فأحرقت أيدى الحلبى « وبعده يتخوزق على الخاوزق لحين تأكل رمته الطير » .

أمر آخر أغفله الجبرتى ، فرغم ان (الخازوق) كان يستخدم — كما يبدو — فى العصر المملوكى ، فانه كان قد ابطل تماما ، وحين جاءت الحملة الفرنسية لم يكن استخدام (الخازوق) شائعا ، ورغم ذلك أمرت المحكمة الفرنسية باستخدامه دون أن يحتج المؤرخ فى تأريخه ، رغم أنه انتهى من تدوين هذا الجزء من (عجائب الآثار) بعد رحيل الفرنسيين بكثير (عام ١٢٤٠ هـ/١٨٢٤ م) فى حين ان قتل سليمان الحلبى وخوزقته — كما تقول المصادر — كان قبل ذلك بكثير (١٢١٥/١٨٠٩) ، أى بعد خروج الفرنسيين من مصر بسنوات طويلة ، كان يمكن ان يكتب مالا يمكن كتابته فى حينها ، تبريرا بخشــــيته على نفســـــه من الفرنسيين .

وهذا يدل على موقف لا يمكن تفســــيره من المؤرخ العربى .

ان هذا الموقف يجعلنا نتساءل : اذا كان من مهمة التاريخ فهم الواقع بهدف فهم الحاضر والاعداد للمستقبل ،

وطالما ان الجبرتى كان وشيك الخروج من العصور الوسطى ، متقبلا لحضارة جديدة وعوالم شتى ، أليس كان من المفروض ان يساعده هذا كله على فهم هذه البيئة التى يكتب عنها (لاستلهام العبرة) ؟ ..

وهذا كله يجعلنا نعيد التساؤل !

لماذا كتب الجبرتى التاريخ ؟

وبشكل آخر :

كيف فهم التاريخ على هذا النحو ؟

وهو ما يصل بنا الى موضع آخر قريب منه ، لا يتعلق بالتنفيذ ولكن بالشكل .

(جـ) خـــدعة المحـــاكمة :

من مراسلات جيش الحملة . باريس . سنة ٩ للجمهورية

« حكم اللجنة العسكرية المشكلة بأمر الجنرال مينو لمعاقبة قاتل كليبر وشركائه .

اجتمعت اللجنة برئاسة الفريق رينيه ، وبعد تلاوتها عليه مرسوم الجنرال مينو وضعته أمامه على مكتبه ، ثم قرأ المقرر محضر التحقيق ومستندات اثبات التهمة ونفيها فى مواجهة المتهمين : .....

.... (و) .. وبعد انتهاء القـــــراءة أمر الرئيس باستدعاء المذنبين فأضحوا أمام اللجنة بدون قيود ومعهم الدفاع . وكانت أبواب القاعة مفتوحة والجلسة علنية / واخذت اللجنة الاصوات .. الخ » ..

من كوربيه دى ليجيبت ــ الطبعة الاصلية رقم ٧١ ف بريريال السنة ٨ للجمهورية :

« باسم الشعب الفرنسى / فى يوم ٢٧ بريريال من السنة الثامنة للجمهورية فى المنزل الذى يشغله الجنرال رينيه ، اجتمع بناء على قـــــرار الجنرال مينو قائد جيش الشرق بالنيابة والذى صدر البارحة ، اجتمع .. (و) .. / عندما اجتمعت اللجنة أحضر الرئيس الجنرال رينيه أمامه على المكتب نسخة من قرار الجنرال مينو سالف الذكر وتلاه على الحاضرين / ثم تلا محضر الاعلام وتليت الاوراق ومستندات الاثبات والنفى ضد المتهمين (..) » .

ويستطرد الحكم ليظهر لنا أن الفرنســـــيين أقاموا محكمة عادلة القيت فيها الاســـئلة القانونية على المتهمين واجابوا عليها ، ثم سألهم الرئيس اذا كان لديهم أقوال اخرى للدفاع وترافع عنهم محامو المتهمين اداريا ورفعت اللجنة للمداولة .. الى غير ذلك مما يوهم بالمحاكمة عادلة بينما كان الأمر مختلف .

ونقرا فى (عجائب الآثار ..) جـ ٣ ص ١٢٢/١٤١ :

« احضروه وسألوه عن اسـمه وعمره و .. ومحل اقامته .. (و) .. وبعد صور محاكمة عادلة انقضت الحكومة على ذلك والفوا فى شأن ذلك أوراقا .. لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام .. (و) .. ثم ان القضاء حطوا خط يدهم باسمائهم مرفقة كاتم السر .. فحالا قضوا أمرهم .. الخ .. » .

ومن مقارنة الروايات الفرنسية بتدوين الجبرتى نكتشف انهم استطاعوا ـ بالفعل ـ ايهام الجبرتى بعدالة المحاكمة، وهى عدالة لم يقصد بها الا عدالة رجال الغرب فقط ، ويغض النظر عن جناية القتل ، فان كل مظاهر المحاكمة انما كانت صورية القصد منها التأثير فى المصريين وخداعهم خاصة ، أنهم بعد أن صدقوا فى اجراءات المحاكمة ان المصريين ليس لديهم أية نية فى الاشتراك فى هذه المؤامرة ، وان العثمانيين كانوا وراءها ، كان من مصلحتهم الا يثيروا المصريية ، ويعقدوا فى الظاهر فقط محاكمة عادلة ، اذ كان كليبر قبل رحيله قد فرض ضرائب عالية وارتكب جرائم كبيرة بعد أن أخمد ثور القاهرة الثانية حتى ٢٠ ابريل ، أى قبل اغتياله بأيام قليلة ، وهو اعتدال وضبط للنفس من جهة الفرنسيين ، اذ يعتقد عدد من المؤرخين المصريين ان الفرنسيين كانوا يستطيعون ـ كما قال عبد الرحمن الرافعى ـ ان يأخذوا كثيرا من الابرياء بجناية القتل ، لكنهم

لم يفعلوا ، فكانوا نموذجا للعدل ومدعاة للاعجاب ، وهو ما ردده عدد آخر من الكتاب ، وان كان من الانصاف ان نشير هنا الى ان د . أحمد حسين الصاوى ، حين أشار الى خدعة المحاكمة التى انطلت على البعض ، سرعان ما عقب فى الحلقة الأخيرة التى خصصها لنشر كتاب المحاكمة، فقال فى شبه استنكار « يصدر الحكم الديمقراطى على الطريقة الفرنسية بقتل الشـــــهيد ـــ بطريقة ديمقراطية ايضا ـــ على الخازوق » .

وهو فى هذا يشير الى خدعة المحاكمة ، بدليل قسوة الحكم وبشاعة التنفيذ ، وان لم ينكر الطقوس التى حرص عليها الفرنســـــيون اثناء المحاكمة والتى أثبتت فى أوراق القضـــــية .

وقد بلغ من انشغال الجبرتى لما يفعله الفرنسيون انه راح يثبت أوراقهم ليس كمؤرخ ، وانما ليثبت عدالتهم ، وهو من آن لآخر ،قبل المنشورات أو بعدها ، يردد عبارات « فى طريقتهم فى دعاوى القصاص ، أوراق القضية بها ضبط الاحكام ، نفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم » بل انه يسمى احكامهم « الفتوى الشرعية » وان (هذه الشريعة والفتوى لازم ينطبعوا) .. الى غير ذلك مما يتأكد معه ان انبهار الجبرتى بالحملة وصل الى درجة بعيدة من عدم التحقيق وربما الميل الى أحكامهم وما يأتوا به من طقوس لم يقصد بها العدالة التى كان يبحث عنها .

وقد كان الفرنسيون مدركين لهذا جيدا ، فحرصوا على أن يفعلوا ما من شأنه أن يستميل الشعب المصرى بحكمة (الجمهور الفرنساوى) ، فمن آن لآخر كانت تصدر منشوراتهم لتقول انهم استخدموا مع القاتل وسائل التعذيب كعوائد أهل البلد بالضرب على باطن الارجل ، كما انهم استخدموا (الخازوق) بما لا يخرج عن شريعة المنطقة وما الى ذلك ... مما كان له أكبر الأثر فى خداع عدد كبير من المصريين والعلماء من بينهم الجبرتى نفسه الذى راح يصف مشهد قبض الفرنسيين على الشيخ الشرقاوى — أكثر معارضيهم — بشىء من الحيدة التامة ، دون ان يعلل لنا فى هذا الموضع الدوافع والاسباب ومعاملته معاملة سيئة الى حد الاهانة لعالم كبير مثله .

وهنا نصل الى قضية نؤثر طرحها لما فيها من اتهام لعلماء الدين ، وهى قضية انحياز أولئك العلماء « الكبار » للحملة ، خاصة فى عهد قائدها الاول نابليون الذى كان يحرص أشد الحرص — كما أسلفنا — على ارضاء أولئك العلماء للتأثير فيهم — أولا — على الشعب المصرى ، والتأثير فيهم — ثانيا — لاستمالتهم ، وقد نجح فى هذا الى حد كبير ، خاصة ، ان بعض أولئك العلماء ، ممن نالوا حظا لابأس به من المعرفة فى القرن الثامن عشر كانوا يتشوقون لاضافة المعرفة الغربية الجديدة من تنظيم ادارى عند الفرنسيين وتقدم علمى ومظاهر حضارة أرقى ، فراحوا — فى الغالب — لا يتخذوا مواقف عنيفة من المحتلين « ولعل

هذا ما جعل هذا اللفيف من الشيوخ اشد ميلا لمداراة الغزاة ولم تكن اديهم القدرة على الفصل بين مجالات التعاون الثقافى والحضارى ومجالات التعاون السياسى ، بل ان مثل هذا الفصل كان مستحيلا فى ظروف مصر التاريخية آنئذ وطبيعة الحملة التى قادها نابليون الى مصر ، وهى حملة عسكرية وعلمية فى آن واحد » .

وهذا التفسير وان برر للعلماء ، فهو يبرر ــ بالتبعية ــ لموقف الجماهير التى كانت على حظ ضئيل من العلم والوعى الثقافى ، وهذه على العكس ،لم تسقط فى بئر الحضارة الأرقى ، وانما كانت العقيدة لديها تمثل جدارا عاليا يحول دون الاندماج فى فكر هذه الجماعة الوافدة ، أو ترتكب ما من شأنه ان يهز الهوية القومية ، فجاءت على النقيض رافضة للوجود الفرنسى .

وهذا يؤكد فى كل العصور ان الجماهير تكون أكثر وعيا من السياسيين ، ومن المثقفين أحيانا فى اتخاذ موقف أكثر ايجابية وعمقا معا .

لقد كانت الاجراءات الادارية التى أجرتها الحملة حافزا لهم ليميلوا الى الفرنسيين، غير ان هذا كان يمكن أن يكشف اكثر بعد رحيل نابليون ، حيث لم يهتم كليبر كثيرا بالصوت الاسلامى ، كما لم يلتفت فى كثير الى السياسة الوطنية ، بل كان أكثر عنفا من سلفه على المصريين وزعمائهم .

ومما سبق ، نرى ان الجبرتى سقط فى هوة الانبهار ، التى لم تسلمه — خاصة فى عهد كليبر — الى فهم صحيح للسياسية الفرنسية الجديدة ، فلم يستطع ان يميز جيدا دوافع الفرنسيين فى الاعلان عن قيام (محكمة) عادلة تنفذ حكما غير عادل ، وهو حكم وضع مسبقا ، فلم تكن المحاكمة الصورية الا ذريعة لتنفيذه .

* * *

(د) عدم فهم الواقع :

كوربيه دى ليجيبت رقم ٧١

فى ٢٧ بريريال — السنة الثامنة للجمهورية

« من القيادة العامة بالقاهرة / من الجنرال مينو

.. انى استنكر أمامكم وأمام العالم أجمع ما لجأ اليه الوزير الأعظم — يقصد العثمانى — قائد ذلك الجيش الذى هزمتموه شر هزيمة فى بطاح المطرية وهليبوليس . انه هو الذى اتفق مع أغا الانكشارية ووضع الخنجر بين يدى المدعو سليمان الحلبى .. / لقد بدد كليبر معكم جحافل هؤلاء البربر الذين أتوا من أوروبا وآسيا الوسطى للسطو على مصر » ..

— وجاء فى (عجائب الآثار ..) ، السابق

« وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال فعند ذلك علموا ببراءة أهل مصر .. »

« كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف ما رايناه بعد ذلك من افعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ، ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس . الخ » .
ومقارنة النصين تضع بين أيدينا جملة من الحقائق :

لم يكن الجبرتى ليفهم الواقع الذى جرى فيه القتل أو جرت فيه المحاكمة الا من وجهة نظر الشيخ الذى كان وشيك الخروج من القرون الوسطى ، وأكثر تحديدا القرن الثامن عشر ، ومن ثم ، فان القول بانه انبهر وحسب بمظاهر المحاكمة أو راح يميل الى مستحدثات الحضارة الغربية فقط مما أثر فيه ، فان فى ذلك ظلما للجبرتى نفسه .

وفى الواقع ، فان الجبرتى كان قد ناله الانبهار ، حقيقة ، لكن تكوينه السلفى كان يسهم فى تكوين وجهة نظره ، وهو ما التقينا معه حين راح يتحدث — فى نظرته للفرنسيين — عن العلم والعدل .

ولان معنى العدل عند مؤرخ سلفى مثله كان يمثل « الشريعة » فان مظاهر المحاكمة كان قمينا ان ينطلى عليه، على الأقل ، على المستوى المجازى فرأى فيما فعله الفرنسيون فى المحاكمة شيئا من العدالة التى عرف كثيرا منها حين كان نابليون يحرص على ابرازها ، منذ فترة مبكرة ، من مجىء الفرنسيين لمصر .

وفى هذا ما فيه من عدم فهم حقيقى لما يخفيه الفرنسيون من مظهر اقامة محكمة علنية لمحاكمة القاتل .

وقد تم ذلك الاقتناع بعدالة الفرنسيين كما يلاحظ «كرابس» فى الفترة الاخيرة لوجود الفرنسيين فى مصر ، ففى السنوات الثلاث السابقة كان دائم الانتقاد لبعض العلماء ، وكان — فى الغالب — منعزلا عن الفرنسيين ، وكان ينظر اليهم ، والى عوائدهم بشىء كثير من الضيق ، لكنه « مع نهاية الوجود الفرنسى وعلى وجه الخصوص بعد اغتيال كليبر شرع يغير أفكاره » ، فكان حكمه المدون ، أو ما انطلى عليه ، انما هو كمون فكرى طال فيه الصراع بين القديم والجديد .

وقد انتصر الجديد لديه بفعل الفرنسيين حين استراح الى أفعالهم ومواقفهم ومحاكمتهم التشكيلية حتى انه لم يعلق — كما لاحظنا — على وحشية القتل !!

ايضا ، نستطيع ان نبرر للجبرتى ميله الكبير للفرنسيين أو لمواقفهم ، ومما نعرفه ان (عجائب الآثار ..) بدأ فى كتابتها عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) ، أى بعد فترة من خروج الفرنسيين من مصر — وهى الفترة التى أسهمت — بفوضى العثمانيين ومذابحهم للمصريين واجرامهم المستمر بما يسميهم معه « أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام » ، وهذه الفترة بين عام (١٨٠٠) تاريخ اغتيال كليبر وعام (١٨٠٦) بعد تولى محمد على الحكم ، كانت كافية — لاحداث المقارنة بين أولئك العثمانيين الهمج والفرنسيين المتحضرين ، هؤلاء الذين يقتلون بسبب أو بدون سبب فى قارعة الطريق أو فى

البيوت ، وبين أولئك الذين يأمرون برش الماء فى الشوارع واقامة (الكرنتيلة) خوفا من المرض واقامة (المحكمة) لمحاكمة هذا القاتل .

وقد كان هذا الموقف بالانبهار موقفا حذرا لم يمنح فيه المؤرخ الفرنسيين مديحا زائدا ، وانما جاء من قبيل المقارنة، التى لم يستطع ان يقيمها فى كتابه (مظهر التقديس) الذى تقدم به الى الحاكم العثمانى ، وهو — فيما يبدو — قد كتب قبل (العجائب) بعدة سنوات ، وربما كان هو السبب الذى جعل الجبرتى — كما نرى من (عجائبه) — أكثر تعاطفا مع الفرنسيين فى الفترة الاخيرة من وجودهم فى مصر .

مصادر ومراجع القسم الثانى :

— عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، عبد الرحمن الجبرتى ، المطبعة العامرية بمصر ، ١٣٢٢ هجرية ، جـ ٣ .

— مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، طبعة لجنة البيان العربى ، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقى ، القاهرة ١٩٦٩ .

— تاريخ الفكر المصرى الحديث ، د . لويس عوض ، دار الهلال ، جـ ٣ ، بدون .

— ندوة الجمعية التاريخية ، ٢٣/١٦ أبريل ١٩٧٤ بمقر الجمعية بالقاهرة .

— بيتر جران ، الجذور الاسلامية للرأسمالية ، ترجمة محروس سليمان ، مراجعة د . رؤوف عباس ، دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٩٣ ، (وقد تمت مراجعة المقتطفات العربية منه على النص الانجليزى) .

— المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، أشرف على طبعه عبد السلام هارون ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٠ ، جزءان .

ـ عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، القاهرة جـ ٣ .

ـ مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر فى الحياة المصرية ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٨٦ .

ـ محمود الشرقاوى ، عبد الرحمن الجبرتى ، دار الهلال ١٩٦٦ .

ـ جاك كرابس جونيور ، كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ، دراسة فى التحول الوطنى ، ترجمة د . عبد الوهاب بكر ، سلسلة الالف كتاب الثانى ١١٨ ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٣ .

ـ بعض المستندات الخاصة الفرنسية باللغة العربية مثل كتاب (لغة الشعب) الذى نشره الفرنسيون بمصر عقب اغتيال كليبر واجراءات المحاكمة موجود منه أكثر من نسخة فى دار الكتب أو المجمع العلمى المصرى ، كما علق عليه ونشر أغلبه ـ الى وقت قريب ـ د . أحمد حسين الصاوى فى تابلويد : أخبار الأدب ، التى تصدر من جريدة الاخبار ابتداء من تاريخ ٢٠ فبراير ١٩٩٤ .

ـ الحركات الجماهيرية فى الوطن العربى ، اشراف د . فهيمة شرف الدين ، دراسات الفكر العربى ، معهد الانماء العربى ، بيروت ١٩٩١ .

ـ أحمد حسين الصاوى ، فجر الصحافة المصرية ، دراسة فى أعلام الحملة الفرنسية ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

١ ـ Corrier de L'Egypt وموجودة بدار الكتب المصرية ، قسم المخطوطات ، تحت رقم ٦١٩ ح ، وتوجد أعداد كبيرة منها فى مجلد يضم سنوات (١٨٠١ ـ ١٧٩٩) .

— Pièces diverses et correspondauce relahves aux Opérations de l'Armée d'Orient en Egypte, imprimées en exécution de l'arrêté du Tribunat, en date du 7 Nivôse an 9 de la Ripublique francaise. Paris, Messidor an IX.

— LA REVUE D'EGYPTE (Gaillardot) Tomes II et III (1895 — 1896)

— P. de SANDE et CASTRO : *L'Egypte* Paris, lille (1901).

— Memoires du Général Baron DESVERNOIS, Paris, Plon 1898.

— J. MIOT : Mémoirs pour sévci à l'Histoir Expeditions en Egypte et en Paris.

خاتمـــة

رؤية حضـــارية مقارنة

(١)

يظل الجبرتى ظاهرة متفردة تماما ، وهذا التفرد يعود اول ما يعود الى طبيعة المرحلة التى وجد فيها ، فليس من الضرورى أن يحدد موقف الجبرتى من القوى الدخيلة على مصر حينئذ بحيث أنه ينطلق من (الموقف) وحسب ، وانما بالبحث عن مبرره فى محورى الزمان والمكان .

ذلك ، لان موقف الجبرتى المحافظ يمكن أن يمثل موقفا مقبولا لدينا فى الظاهر ، غير أن تفسير هذه القابلية يظل سؤالا حائرا ، فان الاشياء بشكلها الظاهر يمكن أن تنال شرعية وجودها كواقع ، أما محاولة فهمها أو تفسيرها ، فقد يصبح أمرا صعب المنال .

وعلى هذا النحو ، حاولنا أن نعيد كشف طبيعة هذه المغايرة التى نجدها هنا بين الجبرتى كمؤرخ سلفى شرقى ونابليون كقائد غربى حالم ، الجبرتى كعالم من علماء

الأزهر العزل ، ونابليون كقائد مسلح من أخمص قدميه حتى قمة رأسه بالسلاح الغربى ووسائل التقدم العلمية .

فلنخرج من التفصيل الى الاجمال .

١ ـ لقد أكد تتابع البنى الثلاث أ ، ب ، ج ، تصاعد دور رجال الدين والتجار فى البنيتين الاوليين ، وهو ما بدا فى كتابات بيتر جران ، بالقدر الذى بدا فى (يوميات) الجبرتى ، ففى يوميات الجبرتى خاصة ، نلمح أنه لا يكف عن تجسيد دور التجار أو الأعيان من المصريين ، ففى موضع يكتب (قبضوا على الحاج مصطفى البشتيلى الزيات من أعيان أهالى بولاق) (ج ٣ ص ٧٧) ، وفى موضع آخر يكتب (عمل سارى عسكر وليمة فى بيته ودعا الاعيان والتجار والشيوخ) (ج ٣ ص ٨٠) ، مقدما الطبقة التجارية عن فئة رجال الدين ، وهو ، يعكس الترتيب فى صفحة أخرى فيقول (ذهب أكابر البلد من المشايخ والاعيان لمقابلة سارى عسكر) (ج ٣ ص ٧٩) ، وهذه الاشارات تؤكد على أن دور الاعيان والشيوخ حتى مجىء الحملة كان مؤكدا ، غير أنه بالوصول الى البنية الثالثة فى عصر محمد على (ج) كان قد تدهور وضع الطبقة التجارية أو الرموز الدينية فى وقت كان (ولى النعم / الحاكم) معنيا بتركيز كل شىء فى يد السلطة المركزية ، ومن ثم تضاءل دور النشاط الفردى والطبقة التى كانت تتهيأ لتلعب دورا حيويا فى الأفق المصرى .

٢ — ومع أن هذا بدا واضحا فى أعمال الجبرتى دون أن يبرر بالقدر الكافى ، فان موقف الجبرتى ، العـــام والخاص ، ترك تداعيات كثيرة . فعلى المستوى الخاص، كان التراث الاسلامى هو المنطق السياسى للجبرتى فى نظرته للأمور ، فموقفه من الفرنســيين أو بقية الفئات الدخيلة يتسم بهذا التصور ، وهو ما يبرر تأرجح موقفه بين السلب والايجاب الذى فهم به موقفه من المماليك أو الحملة الفرنسية أو — حتى — محمد على .

وهذا فى السياق الاخير يعنى أمرا واحدا ، هو ، أن موقفه كان يحدده فهمه لمصطلح العدل أو الحرية أو الحاكم وما الى ذلك من المصطلحات السياسية ، ففى حين أبدى اعجابه بمنجزات المماليك فى فترة ، عاد فى فترة أخرى منتقدا لتصرفاتهم، وهو مافعله مع الفرنسيين ، وهو موقفه العام ، أيضا ، من سياسة محمد على ، ففى حين كان من أكبر المعارضين لاسلوب هذا الحاكم ، فانه لم يستطع أن يخفى اعجابه باصلاحات (الوالى) وهمته الكبيرة حين تعلق الأمر بمصلحة الدولة .

أى أن موقفه كان تعبيرا ذاتيا .

هذا على المستوى الخاص ، أما على المستوى العام ، فان موقفه السلبى أو الايجابى ، لم يكن خاصة ذاتية له ، وانما كان نابعا من الفكر الذى يمثله ، فهذا الفكر يوجد عادة قبل التعبير عنه أو ممارسته بأى موقف ، ومن هنا ،

فان الواقع الشرقى فى فترة الحملة الفرنسية لم يكن نابعا من رد الفعل ازاء الحضارة الغربية ومنجزاتها ، بقدر ما كان نابعا من (الاصولية) التى تتعمق بجذورها فى البيئة الشرقية .

أى ، أن موقفه كان تعبيرا شرقيا ..

وهذا يرتبط بموقفه الحضارى من القوى الدخيلة على مصر ، اذ لم يكن نابعا من خاصيته الذاتية ، ذلك ، لاننا نستطيع أن نرى — كما يذهب البعض — أن الفاعلية فى المجتمع ليس هو الفرد ، وانما «مجموع الاعمال الانسانية لطائفة اجتماعية » ، ومن هنا فان الفاعلية تظل لجماعة لا لفرد ، والرد فعل اجتماعى وليس لنازع ذاتى .

أى ، أن موقفه كان تعبيرا اجتماعيا .

صفوة القول ، أنه يمكن أن يعد موقف عبد الرحمن الجبرتى (موقفا) حضاريا فى مواجهة موقف حضارى آخر ، مغاير له فى الطبيعة ، مساو له فى القدر .

(٢)

لقد كان موقف عبد الرحمن الجبرتى العام نابعا من الموقف الذى مثله العلماء ، والعلماء فى فئتهم العليا ، حيث كانوا منذ قرون عديدة يتمتعون بمكانة كبيرة ، وان اهتزت

فى بعض العصــور ، غير انها ــ بوجه خاص ــ كانت تمنح صاحبها القيمة والمكانة اللائقين به ، وقد تمثلت هذه المكانة فى الصـــحوة الدينية متخذة حركة بعث خلال الانخراط فى الطرق الصوفية ، اذ يرى بيتر جران أن الفترة بين عامى ١٧٦٠ ، ١٧٩٠ (أى قبل مجىء الفرنسيين بأقل من عشر سنوات) كانت هى قمة نشاط « الطريقة » التى تنتمى الى الطبقات العليا أو الدنيا حسب معايير ذلك الوقت والتى تتمثل فى القيادات البارزة ، وان أتسعت الفجوة بعد ذلك بين الاغنياء والفقراء .

وهذا يفسر ان الموقف من الفرنسيين يكون رد فعل للسلفية الاسلامية ازاء الحضارة الغربية ، وهو رد فعل حضارى فى المقام الاول يمثل الجبرتى فيه ــ رغم أهميته القصوى ــ موجة عالية من موجات التيار العالى فى الصراع بين الشرق والغرب .

والجبرتى ــ كأحد أولئك العلماء الكبار ــ تطور لديه مشهد الصراع الحضارى بين العقليتين : الاســلامية والغربية ، وذلك من خلال مفردات الصراع :

١ ــ جاءت الحملة الفرنسية ، كما أشرنا ، لتباعد بين خيوط النسيج المحلى فى « عملية التحديث التى بدأت قبل وصول الغرب » على حد تعبير بيتر جران ، فضلا عن المنافسة بين الدول الرأسمالية الغربية التى أضــرت بمصــر .

٢ ـ جاء رد فعل العلماء مشوبا بالاعجاب ، خاصـــة أول الامر ، غير أن المدقق يلحظ ان الفترة التالية ، وخاصة منذ تولى كليبر ومقتله ، حولت الاعجاب الى انبهار بمظاهر محاكمة الحملة لسليمان الحلبى غير ان هذا الانبهار كثيرا ما كان يختفى ، ويحل محله الاستياء الشديد ، فقبل اغتيال كليبر توالت المحن والقتل والتغـــــريم الى أقصى مدى (خاصة عقب ثورة القاهرة الثانية) ، وبعد كليبر ذاق المصريون الأمرين لفرض الضرائب الباهظة والقتل بشكل مستمر رغم ادعاء العدل والانصاف .

والجبرتى نفسه يسهب فيما لاقاه أهل (بولاق) من المجازر والتقتيل ويصفه بانه « يشيب من هوله النواصى » ج ٣ ص ، ويضيف « وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور » ، ويحكى الجبرتى أيضا كيف تعامل كليبر بعنف مع العلماء وهددهم أنه كان جزاؤهم « كما فعلنا مع أهل بولاق » ، وهو يستبدل بهذا الأموال الطائلة « المطلوب منكم عشرة آلاف الف الف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرين فضة يكون فيها الف الف فرنك عنها خمس عشرة خزنة روسى بثلاث عشرة خزنة مصرى منها خمسمائة الف فرانسه » ص ١١٢٢ ، وبعد اغتيال كليبر نقرأ أيضا « قرزوا فردة أخرى وقدرها أربعـــة ملايين وقدر المليون مائة وســـــتة وثمانون الف فرانسه » .. الى .

وهنا يتأكد لنا ان الانبهار لم يأت من العدل أو الانصاف اللذين زعمهما الفرنسيون ، وانما هو من بعض السلوكيات او المواقف القليلة التى جاءت بها الحملة فى أول وجودها فى مصر خاصة الفترة البونابرتية ..

٣ — تتبقى عندنا قضية هذا (الانبهار) الذى يظهر ويختفى من آن لآخـــر عند مؤرخ كبير مثل الجبرتى طيلة (العجائب) وهى قضية يمكن فهمها ، اذا عرفنا أنه كتب (العجائب) تحت مؤثرين :

أولا : انه كتب بعد خروج الفرنسيين من مصر بعدة سنوات (١٨٠١ — ١٨٠٥) وهى الفترة التى شهد فيها المصريون أعتى صنوف الاهانة والفساد على يد العثمانيين وأوباشهم من العائدين باســـم المســـلمين بعد خروج الفرنسيين .

ثانيا : ان الدعاية الفرنسية فى مصر استطاعت خداع عالم كبير مثل الجبرتى ، جعلته لا يرى فى قاتل كليبر الا (آفاقى) وجعلته يرى مظاهر المحاكمة من مظاهر العدل وهى كلها اشياء انطلت على الكثيرين ، خاصـــة ، ان الجبرتى كان أحد أفراد الديوان الذى ألف فى هذه الفترة ، وقد كان يخصص لهم مخصصات مالية ضخمة ، كما جاء فى تاريخ الجبرتى نفسه ، اذ لا يمكن ان نتجاهل تأثير اختيار عدد من العلماء يوهمون ان الحكم فى البـــلاد لهم ثم يحصلون على مبالغ كبيرة .

وحين يتحدث عن ترتيب الديوان فى أول عهد مينو يتحدث عن صـفات العلماء (المعممين) فيه وحين يذكر أسماءهم فانه يجىء الى اسمه ولا يكتب صراحة بل يكتب مكانه (وكاتبه) وهذا أمر محير بالنسـبة الى المؤرخ السابق .

ولا نستطيع أن نتهم الجبرتى بالرشوة — بالطبع — غير اننا لا نستطيع أن نفسر موقفه الملاين أو المهادن فى اعتبارنا عدة وسائل اتخذها الفرنسيون ، وقصـد بها خداع العلماء ، ونجحوا فى ذلك الى حد كبير .

٤ — بيد اننا نظل أمام قضية لا نستطيع ان نبررها ، ولا نملك من الأدلة ما نستطيع بها ان ندافع عن الجبرتى ، فاذا افترضنا — وهذا خطأ — انه لم يستطع تحديد هوية سليمان الحلبى وتعامل معه على انه خارج على القانون (وليس رد فعل لرأى عام اسلامى عام مع الوضع فى الحسبان كل الأطر التى انتهت به الى هذا الفعل) .. نقول ، اذا افترضنا ذلك ، فكيف لم يتنبه الجبرتى لقضايا أخرى كثيرة أشرنا اليها من مثل :

— كيف انطلت عليه المحاكمة ؟

— كيف لم يستطع ان يفهم دوافع الفرنسيين ؟

— كيف لم يشر ، ولو من طرف خفى ، الى وحشية القتل وهول التعذيب الذى تعامل بها الغرب مع سليمان الحلبى وشركائه ؟

أننا لا ندافع عن سليمان الحلبى أو نتهم الجبرتى ، ولكن ندهش حين نعرف ان هذا الحكم القاسى أجرى تحت سمع وبصر الجبرتى ، ومع ذلك ، فانه لم يجعله يدهش او يغضب أمام قسوة الحكم وبشاعته .

إن هذا الحكم لم يستخدمه غير نيرون فى تعذيب مخالفيه ، واستخدم — قديما — فى بلاد فارس وتركيا والشرق الاقصى وروسيا — لكنه كان قد ألغى فى مصر تماما ، وعلى افتراض قبل مجىء الفرنسيين ، تمشيا مع ما رددته هيئة المحكمة الفرنسية أنهم يستخدمون قصاصا كان متبعا لدى أهل البلاد .

وفى رأينا ، ان الخازوق كان عقابا يتسم بالعنف والقسوة الشديدة ، وهى سمات تعكسها هذه الحضارة الغربية وريثة القرون الوسطى حضارة الغرب العنيفة .

وهو موقف لم يتنبه اليه مؤرخ سلفى مستنير كبير مثل عبد الرحمن الجبرتى ؟

٥ — بقى السبب المباشر الذى جعل الجبرتى يبدى الكثير من الانبهار الذى بدا أقرب من الاعجاب بالفرنسيين وهى (حالة) يمكن ان نلاحظها ببساطة عقب خروج الفرنسيين من مصر ، ويمكن تفهمها من السبب الذى جعله يعاين ممارسات محمد على فى الحكم ، فبينما كان اهم ما يميز الفرنسيين ان هؤلاء (الكفرة) رغم عقيدتهم ،

كانوا يحرصون على (العدالة) ولو حتى فى شـــــكلها الصورى ، اما فى الفترة الأولى من حكم الوالى ، فان ممارساته لم ترض تطلعات الجبرتى الى هذه العدالة ، فديكتاتور مصر الجديد الذى أجهز على المحاولات العثمانية ــ المملوكية بالسلاح مستعينا بطبقة العلماء ، مالبث بعد أن استقرت له الأمور أن أرتد على خلصاء الأمس فيوقع بينهم الضغينة ، ثم يتخلص منهم الواحد بعد الآخر .

معنى هذا عند الجبرتى ان الوالى الجديد لم يحفل بالتعامل الطيب مع العلماء ، وأسرف فى العنف لتوطيد حكمه ، بيد أنه يشفع للجبرتى انه لم يخطىء ذكاء الحاكم الجديد ، ولا تخلو هذه العبارة من معنى دال حين دونها الجبرتى فى نهاية تاريخه عن الحاكم ، يقول :

« فلو وفقه لشىء من العدالة على ما فيه من الرياسة والشــــهامة والتدبير والمطاولة فكان أعجوبة زمانه وفريد اقرانه » .

(العجائب ج ٤ ص ٢٥٨) .

وباختصار ، لم يستطع الجبرتى ، السلفى ، ابن القرن الثامن عشر ، غير أن يظهر انبهاره ، لا اعجابه المطلق ، بالفرنسيين ، كما لم يستطع بهذا التكوين ابداء الاعجاب الخاص بمحمد على ، اذ كان لابد للحاكم الجديد من أن يقوم بعدة اجــــراءات حازمة تقربه من ثبات ملكه وتنهى

الفوضى التى كانت تمر بها البلاد بعد سنوات من خروج الفرنسيين، وهو ما جعله يبتعد عن (العدالة) فى منظور المؤرخ ..

لقد كانت مصر — على ما يبدو — تخرج من القرن الثامن عشر فى الشرق ، — ولكن — الى القرن الثامن عشر الغربى .

* * *

• الملاحـــق

(نمونجان من كوربيه ديجيت)

COURIER DE L'EGYPTE.

N.° 1.er

Le 12 Fructidor, VI.e année de la République.

NOUVELLES.

Corfou, 27 messidor an 6. Le vaisseau de guerre *le Stengel* est arrivé d'Ancône dans ce port, escortant un convoi de trois mille Français qui sont venus pour renforcer la garnison des îles Ioniennes.

La prise de Malte par la France a fait ici une joie universelle. Les départemens d'Ithaque, de Corcyre et de la mer Egée sont dans la situation la plus satisfaisante; il y règne le plus grand enthousiasme pour la liberté, et le plus grand attachement à la mère patrie.

De Janina, le 15 messidor. Notre Pacha est toujours sous les murs de Widdin, commandant en second l'armée du grand seigneur sous le capitan-pacha, qui est destinée à faire la guerre à Passewan Oglou qui reprend toujours de nouvelles forces. Après le combat malheureux où notre armée a perdu 700 hommes, et a été obligée d'abandonner le champ de bataille, l'armée de ce rebelle s'est encore augmentée.

Il y a quelques jours, est arrivé ici l'adjudant général Rose, qui a eu une audience de cérémonie du fils du pacha, à l'issue de laquelle il a été expédié un courier sur un dromadaire, portant au pacha une dépêche extraordinaire.

Malte, 25 messid. La fête du 14 juillet s'est célébrée ici avec la plus grande pompe. Les bienfaits de la liberté se font sentir dans toutes les classes; il n'est pas un seul Maltais qui ne bénisse l'heureux changement qui a eu lieu.

Trois frégates anglaises bloquaient notre port. Le vaisseau de guerre *le Dego* et la frégate *la Carthaginoise* sont sortis pour leur donner chasse.

Le vice-roi de Sicile avait refusé de nous donner des vivres; mais sur les instances de notre ambassadeur à Naples, il vient de permettre l'exportation de la Sicile. Au reste nous avons du bled pour la garnison et les habitans pour dix-huit mois.

Tripoli, 28 messidor. Le pacha de Tripoli, dès l'instant qu'il a eu reçu la demande du Général en Chef, de mettre en liberté tous les esclaves maltais (le Général en Chef lui avait envoyé une grande quantité de Tripolitains et autres esclaves turks) les a envoyés par un bâtiment à Malte, avec une grande quantité de bleds et de fruits, et quatre superbes chevaux de race dont il a fait présent au général commandant à Malte.

Alexandrie. La ville est encombrée de matelots et d'équipages de nos vaisseaux, provenant de l'escadre. Tous les prisonniers ont été rendus.

COURIER DE L'EGYPTE.

N.° II.

LE 20 VENDÉMIAIRE, VII.e ANNÉE DE LA RÉPUBLIQUE.

NOUVELLES.

SYRIE.

On assure qu'Ibrahim-bey a envoyé auprès de Djezzar pacha, Mustapha-bey le grand, afin de l'engager à se réunir à lui pour marcher contre les Français; Djezzar pacha l'a fait arrêter. Alors Ibrahym lui a envoyé sa femme et sa fille, mais elles n'ont pas été plus heureuses; Djezzar pacha les a renvoyées, en annonçant à Ibrahym qu'il ne se fiait point à toutes ces promesses, et qu'il connaissait trop bien la manière dont les beys témoignaient leur reconnaissance à ceux qui les servaient, pour être tenté de rien faire pour eux; que d'ailleurs l'exemple d'Osman-bey el-Tobal, exilé par eux dans le Saïd, après avoir contribué à établir leur puissance, n'était pas fait pour le rassurer.

ÉGYPTE.

Belbeys, le 2 vendémiaire.

Hier à sept heures du matin, en conséquence de l'ordre du Général en Chef, du 11 fructidor dernier, et conformément à ceux du général divisionnaire Reynier, se sont assemblés hors de l'enceinte de leur camp, les 2.e et 3.e bataillon de la 9.e demi-brigade d'infanterie de ligne, un détachement du 6.e bataillon de sapeurs, pour célébrer l'anniversaire de la fondation de la République et du renversement de la monarchie.

Le général Reynier, accompagné de son état-major, du divan de la province de Charqyéh, et de la compagnie des Janissaires, s'est rendu au lieu de la réunion; et après avoir fait placer le drapeau tricolor au plus haut minaret, et fait exécuter aux troupes plusieurs évolutions militaires, il a prononcé un discours, ainsi que l'adjudant général Beauvais. Ces deux discours ont été suivis des cris mille fois répétés de *vive la République*, et de plusieurs coups de canon. Les troupes ont ensuite défilé au son de la musique militaire qui a exécuté plusieurs airs et marches patriotiques. La fête a été terminée par une course arabe, exécutée par les Janissaires de la province.

KAIRE.

C'est principalement lorsque l'on est éloigné de sa patrie, que l'on se rappelle

لمصطفى عبد الغنى :

- مؤرخو الجزيرة العربية
- المؤثرات الفكرية فى الثورة العربية
- شهرزاد فى الفكر العربى الحديث (ط ٢)
- الوداع . . ترجمة آخر أشعار اراجون
- الحصار – مسرح شعرى
- الخروج من المدينة – مسرح شعرى
- عبد الرحمن الشرقاوى متمردا
- فى دائرة النقد
- طه حسين والسياسة – ١
- تحولات طه حسين – ٢
- طه حسين وثورة يوليو – ٣
- المسرح المصرى فى السبعينات – ١
- مسرح الثمانينات – ٢ (ط ٢)

- البنية الشعرية عند فاروق شوشة
- نجيب محفوظ : الثورة والتصوف
- الخروج من التاريخ : مدن الملح
- المثقفون وعبد الناصر
- زكى نجيب محمود
- الاتجاه القومى فى الرواية (عالم المعرفة)
- المثقفون والسادات
- المثقفون والخليج — مصر
- أحمد بهاء الدين — سيرة قومية
- الجبرتى والغرب
- القصة المصرية القصيرة
(استنتاجات شخصية)

الفهـــرس

رقم الايداع ٣٣٧٦/١٩٩٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4325 — 1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب